ماجد عطا

الرحيل

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي مارس ٢٠١٩

الكتاب : الرحيل

الكاتب : ماجد عطا

تدقيق لغوي : احمد محمد عبد الستار

تصميم الغلاف : عماد رشدي

رقم ايداع: 7562

ترقيم دولي: 978-977-688-20-9

دار سنون للنشر والتوزيع

الزقازيق - الشرقية - مصر

٠١٠١١٤٦٤٠٣٧

sonon.pub@gmail,com

الرحيل

سنون للنشر و التوزيع

ماجد عطا

إهداء

إلى الروح التي رحلت ومازالت تبث كل ذلك النضال. .
وإلى أمي، لطالما اختصر فيها كل معاني الحب، وكل تفاصيل الجمال، وروعة الحياة. .
وإلى روح أبي، لطالما كانت لمساته الصادقة هي دروبي في الحياة. .

بعد حرب الشوارع بين القوات المسلحة المصرية والمتطرفين سنة ١٩٨٧ جنوب مصر في وسط الصعيد، تحديداً في مركز ديروط محافظة اسيوط التي استمرت سنوات، وأثناء العمليات المتفرقة الإرهابية سنة ١٩٩٢ بعد أن تم تكوين الجناح العسكري للجماعة. .

إنها بيئة متعددة الثقافات والطوائف المختلفة من بين الديانات السماوية؛ فتجد فيها المسلم السني والشيعي المتخفي والسلفي المتعصب، وفيها أيضاً الوسطي والمدعي الوسطية، وفيها المسيحي الأرثوذكسي المتزمت، والكاثوليكي، وبها البروتستانت بمختلف جماعاتها. .

نعم إنها بيئة خصبة للتعصب والاضطهادات والعنف، إن لم نتعلم كيف نتعايش مع المختلف، ولكن على ما يبدو أن ذلك من المحال على ما يحدث على أرض الواقع من تعصب وعنف مسلح. . .

حيث كانت الفوضى تعم المكان وبعض الأنقاض المتفرقة، وأثناء سيري وسط هذا الدمار وبعض الجثث المتفرقة، وأنا ألتقط صوري من أجل مقالي الصحفي بجريدة الأهرام، هنا جثة شاب، وهنا جثة لأم تحتضن طفلها الذي لم يتجاوز الخمس سنوات، وهناك كنيسة مشتعلة بها النيران، وهذا المنزل منهاراً. . .

وأثناء سيري بين أنقاض أحد المنازل تعسرت قدمي ببقية مكتبة منزلية متناثرة منها الكتب في كل الأرجاء، ومن بينهم وقعت عيناي على مجلد تبدو أجندة مذكرات، ولكن يبدو أن البعض منها تهالك من فوضى الدمار فوقعت عيناي على كلمة -الرحيل- بعد عدة صفحات شبه ممزقة تماماً أمسكت بها ووضعتها ف شنطة أغراضي حتي يتثنى لي الاطلاع عليها بعد

رجوعي إلى المنزل. . . .
وبعد أن عُدت إلى المنزل حوالي الساعة ١٢ بعد منتصف الليل، والهدوء يعم المدينة حيث ليالي الشتاء القارصة، أضأت نور الغرفة بعد أن سكبت كوب القهوة وجلست على مكتبي وفتحت على أول صفحة باقية، على ما يبدو أن جزء من النص مفقود في الصفحات السابقة. . .

الصرعات والرحيل

كنت أعلم أنه ينوي الرحيل سراً، عندما يرحل لن يخبر أحداً بميعاد رحيله، ولا إلى أين يذهب، لن يترك دليلاً إلى طريقه، تسللت خلسة متخفي خلفه إلى أن انزوى في ناصية الشارع، وعندما وصلت إلى الناصية وجدته في انتظاري، يبدو أنه أدرك أنني أترقب خطواته؛ فقال:

لماذا تركض خلفي؟

قُلت له: لا أريد أن أفقدك، لا تتركني وحيداً. .

قال: أنا مرهق وأحتاج بعضاً من الراحة، إنما أنا ذاهب لأجلك ولأجل أن يرتاح الجميع، عُد إلى المنزل ولا تخبر أحداً، لا تقُل شيئاً لوالدتك.

قُلت: لا، بل سوف أصرخ بكل ما فيّ أجمع الناس، ولن أدعك ترحل مني بعيداً. .

اغرورقت عيناه بالدموع وأخذني في أحضانه، وقال -تعالَ لنعود إلى الديار-. . تساقطت دموعي فرحاً وارتعش قلبي حباً، واطمئنت روحي، ها قد انتصرت وامسكته، ولن أدعه يفلت من يدي. .

عدنا إلى البيت. . .

كان يسوده هدوء مخيف، وتشعر الجدران بحزن عميق، كيف يبتهج وقلب أمي حزين والدموع خلف جفونها بحور مختبئة في الأعماق بعيداً، تعلم الحقيقة وتكتم الوجع في الروح وتخبئ الدموع بين الجفون، تعلم كم رحيله مؤلم، تحاول منعه، ولكن تعلم ما نتيجة وجوده، ربما أكثر نزيفاً وألماً. . . أنظر إلى عيناها، أشعر بسرّ مكتوب في أعماقها ووجعاً بين ضلوعها،

ولكني لا أعلم ما حقيقته، ولا أجرؤ التحدث في ذلك. . .
ولكن تنفست الصعداء عندما أدركتنا على عتبة الديار، قلبي كان يخفق بقوة، وعقلي تنتابه المخاوف أيضاً، هل سيبقى معي أم في غفلة سوف يرحل من جديد؟ هذه المرة أدركته، فمن يعلم المرة القادمة؟ ربما لن أستطيع اللحاق به! كيف سوف تستمر الحياة دونه، تصارعني الأفكار كثيراً، طفل تصارحه أفكار وهموم الكبار. . .
لم يمضِ إلا القليل من الأيام حتى حدث ما كان يخشاه قلبي، وما كان يراود عقلي؛ ها هو قد رحل دون أن يخبرني، يحضنني، يودعني. . تسلل الحزن في كل جسدي، كل روحي، واغتم قلبي، واستوطنت الغصة صدري، والدموع تقاوم صمودي وتنزل كـ قطرات المطر الكثيف. . .
بحثت عنه في كل الأماكن حيث اعتاد الوجود، ذهبت إلى الحقل، إلى الطرقات كـ المجنون، لا شيء! مضي النهار وحل سواد الليل، وحمل معه كل الأفكار السوداوية التي طالما كنت أخشاها. .
وها قد جاء اليوم الثاني وازداد الرعب والخوف، وذهب جدي يبحث عنه في كل مكان، الحقول، الصحاري، وخلف المرتفعات، المستشفيات، بعض الأقارب في القاهرة؛ لا أثر له، وانتهى النهار الثاني دون جديد سوى ذلك الألم الذى يزداد وجعاً، اقترب جدي نحو المنزل أثناء تجمع بعض الأقارب وأنا أقف هنا حائراً، وأصرخ بصوت شديد. . .
أين أباك يا مجدي، أين أباك. . ؟!
كان جدي يعلم بحقيقة الأمور، ولكن يخفيها سراً ويأمل في تغير الأقدار. .
وكل العيون شاخصة لي تمنيت أن الأرض تنشق وتبتلعني لتريحني من هذا العذاب، وهذا الجرم الذي لم أرتكبه؛ شعرت ولو كأني أنا الملوم، فأنا

السبب في كل هذا، لو لم أكن سبباً لما كان اختار الرحيل مني، لو كان يحبني ويرغب في لبقى بجانبي، ولو لم أكن أنا المذنب لما صرخ جدي في وجهي ليسألني أين هو، فأنا طفل غير مرغوب به من الجميع، وأنا سبب في رحيله ووجع قلب أمي وانهيار جدي. .

أخذت أحاول أن أتسلل خلسةً هارباً من تلك العيون الشاخصة، ما بين ملوم ومشفق، وجلست على كومة من الرمال في ساحة الدار، ورُحت ألعب بها، ولو كأن لا شيء يحدث غير مبالٍ بشيء، هكذا في نظر الجميع، أما في داخلي صراع وجودي عنيف يكاد يمزقني وحل سواد الليل، الليلة الثانية لفقدانه أردت أن أراه مرة أخرى لكي أخبره بما في قلبي وروحي، أخبره كم أحبه، كم أشتاقه، كم أحتاجه، أخبره عن تلك الصراعات التي في عقلي المتداخلة كوحوش تنهش في رأسي، أن أسأله لماذا؟

ذلك السؤال العنيف الذي يصارع كل ما في. . لماذا؟

وها قد أشرقت شمس اليوم الثالث لتستمر سلسلة البحث من جديد، ومضي الوقت بطيء، ثانية ثانية، دقيقة دقيقة. . .

كم هي طويلة دقيقة الانتظار! كم هي مؤلمة أكثر من الألم ذاته! ياليت الألم يستعجل، ولا يعذبنا بانتظاره. . .

وقرب الغروب بعد أن تبخر الأمل من نفوسنا، ها قد أتى جدي ومعه أبي وبه بعض الخدوش! لا أدري ما سببها، ولا أحد تسائل، لا يهم ماذا حدث فكل ما يهم في هذه اللحظات أنه عاد، قد وجده عند أحد الأقارب في مدينة الإسكندرية العريقة، تعالت أصوات الفرح والزغاريد بعد أن أخبره جدي أن الأمور تم التفاوض الودي، واقتنع الجميع بأنك لست سبباً في الأمر، لم أفهم ما معنى تلك الجملة حينها، ولكن ربما تحمل في طياتها السر. .

أما أنا انزويت خلف الناس مبتعداً في زاوية البيت، في الفناء الخلفي دون أن يلاحظ أحد، أجهشت بالبكاء بعنف وتساقطت الدموع بغزار، وقُلت في نفسي ها هو الآن من جديد لينفي عني هذا الجرم الذي لم ارتكبه يوماً، ويرفع هذا الألم الذي يتسلل جسدي وروحي خلسةً. . .

بعد محاولة الرحيل السابقة حدث نوع من الهدوء الغامض، الهدوء الحذر, فلا شيء أصعب من الانتظار، الخوف المترقب لحدوث شيء ما مجهول، الانتظار فعل تخلي عن الذات، الخروج من الذات والتسليم الكامل لإرادة روح الحياة، ولهذا هي عملية صعبة ومعقدة. .

لذلك الجميع في عجلة من أمره نركض ونركض لنصل، وعندما نصل لا نجد سوى سراب، لا شيء إلا مزيد من الجوع والفراغ الذي يدفعنا من جديد لنكون في عجلة من أمرنا، وهكذا تستمر الدائرة المفرغة؛ بل الموجعة. . .

إنه ذلك الألم الذي في الأعماق المستمر والمتجدد ولا شفاء له، في هذه العجلة؛ بل كما الألم في الأعماق فهكذا ينبع الشفاء، ففي العجلة عملية تسطيح الأمور، فلا وقت لتشعر بالجمال في أعماقك وتراه في طبيعة الحياة الخلابة، فلا وقت للتفكير، للتأمل، للإصغاء لذلك الصوت العميق المتجدد في بحور الوجدان؛ فلا يمكن معالجة العملية الوجدانية بشكل صحيح ومنظم إلا بالإصغاء المنتظم داخل القلب، وبين أروقة الروح. .

الرحيل هو أكثر الأشياء إيلاماً لأنه يخلق في النفس حالة من الفقد، وعدم الثقة، وعدم الأمان؛ حالة من فوضى الوجدان، خاصةً أنه لا يوجد ثمة ما يسمى بالرحيل إلا لهؤلاء الذين يملكون مسافة من القرب العميق لـ أرواحنا، ويمثلون لنا الكثير من الثقة والأمان، ومن ثم الاستقرار؛ فإن لم يكونوا قريبين لما أطلقنا على غيابهم بالرحيل ففي الرحيل هزة عنيفة

للثوابت اليقينية للإنسان، وهذا ما يجعله يسبب خلل في بوصلة الذات مما ينعكس على عالمنا الخارجي. .

فالرحيل أيضاً حالة فقد تذكر الإنسان بمصيره الحتمي، ألا وهو الموت الرحيل الأبدي فتخرج تلك المخاوف من باطن العقل، وهذا ما يجعلنا نقف في ذهول ونقول كيف لا أستطيع أن أراه مرة أخرى! حتى مع الذين تسببوا لنا في الألم، إن عقلنا لا يقبل بسهولة فكرة الفقد. .

فما هذا الهدوء، فهل هذا هدوء مصطنع أم الهدوء الذي يسبق العاصفة؟ أم أنه سلام الحياة، وأنها قررت أن تمنح قلبي بعض السكينة وتمنح روحي بعض السلام، لا أدري، ولكن ما أدريه أن قلبي في حالة نزاع وترقب، حذر، خوف، سلام ممزوج بالغموض المجهول، لذلك المجهول الذي دائماً ما يلغي الحاضر ويصبغه بحالة القلق ويجعل في روحي قيود الحزن، ويحرمنا من بهجة الحياة. .

ليتنا نستطيع أن نوقف ذلك الصراع ولا نعود لتلك الصور المؤلمة العالقة في الذاكرة، ونقبل باللحظة ونستمتع بها كما هي دون أن نبالي بما سوف يأتي، ماذا يفيد القلق أو بماذا يغير في المحتوم، مرت أيام، شهور، ومن ثم سنوات. .

ها قد قامت العاصفة، ولم تكن كسابقتها؛ لكن كانت أشد عنفاً وأكثر رغبة وإصراراً، قال سأرحل ولا أريد من أحد أن يتبع خطواتي دعوني وشأني أنتم لا تحبونني، إن كنتم تحبونني لا تمنعوني. .

أريد السفر في قلب الحياة، أكتشف معالم أخرى، لا أفضل سجن هذا المكان، إنه يخنقني، تسكن الغصة حلقي، والغم صدري، إن رحيلي لخير للجميع، ربما يوقف نزيف الدماء القادم، لا أريد أن يعيد التاريخ نفسه

مراراً وتكراراً. . .
وقفت صامتاً في حالة ترقب إلى الشد والجذب، والتراخي واللين، بين الذين يقفون حوله محاولين منعه من ذلك القدر المحتوم وهذا المصير المكتوب

-الرحيل-

ذلك الانطواء داخل قوقعة الألم والظلم، في ذلك السجن بين خطوط الزمن، لكن هذه المرة لا شيء يقف صامداً أمام تلك الرغبة الملحة والعنيفة أمام صوت هذا الضجيج، ضجيج الفوضى الوجدانية، أمام ذلك الصراخ العنيف المتداخل بقوة داخل العقل. . . .
وأنا أقف في ترقب، ما هذه الأصوات؟ إنها تسيطر على كل مفاصل مملكتي، إنها تحاصرني. . . كدوائر متداخلة حولي وداخل عقلي متاهة لا نهاية لها من الأسئلة التي ليس لها جواب، من هذا الشعور بالفراغ باللا معنى، ثم سمعت صوتاً قطع حبل أفكاري المتصارعة من وسط كل تلك الأصوات المتنازعة لتمنعه من الرحيل. . .
دعوة لا أحد يضغط عليه، فقط دعوة وأنا أعلم أنه لن يرحل بعيداً. .
سوف يجلس في استكانة قلبه لبعض الوقت، ومن ثم يعود عندما تهدأ قليلاً الأمور
كان هذا صوت أحد الأقارب وبالفعل تركوه ووقفوا في صمت المتفرجين أمام لعبة القدر، وما عساهم أن يفعلوا أمام القدر والمحتوم. .
أما أنا فوقفت في صمتٍ رهيب فلست كبيراً بما يسمح لي أن أتكلم وسط الأكبر سناً وأقول لهم هذا خطأ، وربما كانوا على الصواب حينها، فمن يدري؟!
ولكن كان كل ما في داخلي ينازعني وارتفعت الأصوات في عقلي كادت أن

تخترق الجمجمة محدثة صوت جهوري صارخاً. .
لا تدعوه يذهب ليس اليوم، أنا أعلم أكثر منكم على ماذا يعزم، سوف يرحل ولن يعود. . .
فهو يتألم كثيراً إذا ما بقى، ويتألم أكثر لأنه سيرحل ويتركني، لكنه سيعند ويفعلها، سيختار بإرادته، فهو لا يرغب أن يكون مجبراً ومسلوب الإرادة، فأنا اختبرت ذلك، فانا قد أبدو طفلاً صغيراً، ولكني اختبرت ذلك الألم، لمسته بيدي فتسلل إلى جسدي وصولاً إلى قلبي، ومن ثم ضخ عبر دمي الألم إلى كل تفاصيلي. .
توجه صوب باب الدار، وقبل أن يخرج نظر بعيون تائهة هاربة في الوجوه الواقفة، أعلم أنه يبحث عني، إلى أن تلاقت عيوننا في صمت مخيف، في تلك اللحظة تلاشت كل الأصوات، و كأن للعيون لغة أعمق من الحروف، وصوت أوضح من الكلمات، سمعت صوت أعماقه وهو يقول عبر خيوط الصمت الواصلة بيننا. . .
سامحني كم تمنيت أن أبقى معك، لكن ليس بيدي سأرحل، اعتني بملامح الدار جيداً، حافظ علي تفاصيله فهذه أمك، إنها الحياة. .
-وما الأم إلا وطن نهرب إلى حضنه عند قسوة غربة الأيام. . - ولو في ذكرى تحتضن أرواحنا بين ثنايا لحظة حنين واشتياق. .
سأرحل ولن أعود. .
سألته عبر الخيوط الواصلة بيننا، ما الذي يؤلم؟ تكلم، هيا أخبرني، لا ترحل، ابق معي، اترك لي سبباً واحداً يجعلني أقول لتلك العيون الناظرة لي وتلومني كأني المذنب، أمسكته بتلك الخيوط الواصلة بيننا من قلب الصمت، ولكن تقطعت الخيوط دون إجابة، غير جملة -سوف تدرك فيما بعد كل شيء-

وها قد رحل. . .

لا تخف سوف يعود بنفسه، هذا ما قرره أحد الأقارب ليا، مر الوقت بطيء كما لو منشار تعذيب يمزق الروح بلا شفقة، ها قد مرت ساعة ودقت عقارب الثانية، ها اقترب أن ينطوي النهار، اقترب صديق لي وهمس في أذني لا تخف، قد وجدوه، ولكن مرهق بعض الشيء، عند أقاربك الذين في القاهرة وسوف يتحسن قليلاً وسيعود إلى الدار، هيا نذهب إلى المنزل، رغم تلك الكلمات المطمئنة من صديقي إلا أن حدساً داخلي يقول لي لا، إن الأمر به شيء غير واضح، لن أعود، بل سأسافر إليه وأراه، لن أستطيع الانتظار. .

وصلت حتى محطة القطار، لكن صديقي وبعض من الأقارب منعوني وقالوا أين تذهب سوف يعود، أرجوكم دعوني أنظر إليه مرة واحدة بعد، نظرة وداع، أحضنه بين جفوني مرة أخرى. . لم أستطع تجاوزهم، عدت أدراجي وينازعني كل شيء، أفكاري لا تهدأ. .

ماذا وكيف حدث، بماذا يشعر. . ؟

إنما هو رحل، رحل وترك لي صراع عنيف من الأفكار، المخاوف، الذكريات، الالم، المستقبل المجهول؛ فقط صراع. .

كتمت صوت البكاء في صدري وأخفيت قطرات الدموع في عيني حتى وصلت إلى الدار حيث أمي وبعض ممن يساندونها في محنة الانهيار، لم أتمالك نفسي، أنا الذي لا يدري تحديد ماذا حدث، صرخت بـ أعلي صوتي وانطلق البكاء المكتوم في صدري، تساقطت الدموع كالنهر وقُلت:

ابكى يا أمي، اصرخي، قد رحل ولن يعود. . .

تعالت الأصوات، وأنا تهت بينها كـ غريب لا يدرِ أين يذهب، صرخت

الخالة في وجهي:
-أين أباك يا مجدي، رحل أباك يا مجدي ولن يعود. . .
وهنا تجمعت كل الآلام في لحظة واحدة في قلبي، وربما كل المخاوف صارت واقعاً ولا أملك ما أبرر به ذنبي. .
أنا السبب، ومن عساه يكون السبب غيري، ولمن يوجهون إليه الملامة غيري! أنا الغير جدير بالحب، غير جدير بالحياة، أنا المرفوض، غير المقبول من أقرب الناس، كيف لي أن أصف ذلك الالم! فهو أعنف مما استطعت أن أصفه في كلمات، وأصعب من أن تحتويه حروف اللغات، ربما هو الموت ذاته؛ فليس الموت موت الجسد وتحلل أعضاءه، إنما فقدان بهجة الحياة هو الموت الحقيقي. . .
رحل ورحل معه كل شيء، الأحلام، الابتسامة، حتى شكل الفرحة رحل، ولم يتبق إلا كم من أسئلة الصراع العنيف؛ لماذا وماذا حدث، ولم قرر أن يكون مصيره هو الرحيل. . . ؟ كيف أفرح، ألعب مع أصحابي وينتابني ذلك الشعور بالمسؤولية والذنب طوال الوقت! أشعر بها في أعماقي دائماً وأبداً. .
وتلومني العيون وبعض الكلمات اللاذعة منهم، ربما دون قصد، فإن سهوت وأطلقت ضحكة بشكل غير إرادي في أي موقف يستدعي ذلك، أجد سيلاً من كلمات التوبيخ تندفع في وجهي، كأنني مجرم ولا يجب عليّ أن أفرح، أو كأني معاقب دائماً بأني أكون في حزنٍ إلى الأبد. .
--أنا عارفة إنت بتضاحك على إيه!! أليس كافٍ ما نحن فيه من همّ؟-
رحل ولم يترك خلفه غير ذلك الفراغ العميق، الحزن، الألم، حتى ملامح الحوائط تبدو باهتة حزينة، تحمل من الكآبة عدة أعمار، لم يترك لي الألم اختيار سوى البعد، الهروب، الانطواء، والانزواء في عالمي الخاص. .

صور الماضي والتحرر

كنت شارد دائماً، بعيد جداً ولا شيء يتحرك غير تلك المشاعر المتقلبة في دوائر بعنف في رأسي محدثة فوضى عارمة في قلبي وانشقاق في روحي، ولا أملك سوى الانتظار، ربما يعود يوماً من تلك البلاد البعيدة، بلاد الحرية حيث بإمكانك أن تعيش أحلامك ومعتقداتك، أن تعيش طبيعة ذاتك دون أن يقتحمها أحد ما، فلك أن تؤمن بمن تؤمن، وتمارس ذلك كيفما تشاء، دون أن تقتل باسم الالهة، دون وصي على أفكارك ونوياك، حيث مساحة يتطابق بها ما في روحك بما تفعله وتظهره للناس، دون أن يحاسبك أحد بما أنت عليه، لطالما لم تعتد الآخر، أن تعيش بما هو أنت عليه في طبيعتك. .
ولكن هل يعود أحد بعدما انطلقت روحه في سماء الحرية؟!
انزويت حتى فقدت اتصالي بالحياة الواقعية، لم أعد موجوداً غير داخل نفسي، يوماً بعد يوم فقدت هويتي، ذاتي، أحلام طفولتي البريئة، تسربت من بين يداي كالمياه، وكلما حاولت الخروج من تلك القوقعة أجدني في دائرة أخرى في ذات القوقعة مع اختلاف الملامح وفقط، لكني لم أستسلم قط. .
حاولت جاهداً تنظيم تلك العملية المتداخلة والمتشابكة من المشاعر المتناقضة والمضطربة، لعلي أجد الإجابة يوماً، لماذا رحل؟ لم يعد يرسل خطابات غير أول خطاب حيث طمئنها على وصوله بسلام إلى ميناء بلد تعمد أن لا يذكرها، أو ربما هي في عالم الخيال، وما نرسم تلك الصور ونصيغ هذا الخيال إلا عندما نفقد الاتصال بالواقع، فما هو إلا اختيار حياة بديلة في عالم موازي؛ فمن يدري، ربما ما نظنه واقعاً هو مجرد عالم موازي في خيال

أحدهما. .

لن أهرب منكِ بعد اليوم، رُحت أبحث عن نفسي؛ من أكون، وماذا أريد، وما هي انكساراتي، وكيف أستفيد من إخفاقاتي؟ بحثت كثيراً في الخارج نقيض قوقعة الداخل، من الانحراف إلى أقصى اليمين، إلى أقصى الشمال، إلى فراغ الخارج اللامعنى تخبط في كل الاتجاهات. .

كل هذه المشاعر وهذا الماضي المضطرب المليء بالأحداث المؤلمة، الموجعة شكلتني بنمط معين، وشكلت تفاصيلي وصفاتي المختلفة، كنت خجولاً منطوي في داخل نفسي غارقاً في أفكاري، بعيد وحيد غريب، وإن كنت في وسط داري، في قلب أوطاني، مرهف الحس، متضامن مع الوجع أي ما كان؛ لكن مع فراغ عميق، احتياج للحب، اشتياق للأمان، لطالما كنت افتقده، الكثير من المتناقضات المتداخلة في دوائر الفراغ الكوني، وفي مدينة عقلي المضطربة. . .

إنها رحلة بالفعل مرهقة للروح، حتي وجدني ذات يوم ذلك الصوت الهادئ وهمس في آذان روحي، اصغ لي، دع صومعتك هذه واتبعني، قلت كيف وأنا سجين هنا داخل دائرة الموتأ أجابني ولكني دفعت الثمن وكسرت تلك الدائرة، ما عليك إلا أن تأخذ القرار وتخرج منها، وما انطلاقة الحياة إلا قرار، الابتسامة قرار، السعادة قرار، الحرية قرار، الحياة ذاتها قرار؛ إما أن تقبل بتلك الحياة وتنطلق في أعماقها، أو تقبل تعيش على السطح متفرجاً، لن تكون سجين بعد الآن، فأنت حر. . .

إنه صوت هادئ لكن عميق. . صوت قريب جداً حتى أنني شعرته في قلبي، خطفني من نفسي؛ فهل وجدت نفسي؟! ما هذا الصوت الذى زلزل كل شيء في؟ الماضي والحاضر، ورسم أمل المستقبل. . هل هو صوت الإله

أم هو صوت النفس المشتاقة للأمان التي أرهقتها الأحزان! لست أدري. .
إنما أعلم شيء أنه خلق في روحي الكثير من السلام، الكثير من البهجة، فاقتربت وابتعدت، اقتربت لذلك الصوت الهامس، وأبتعد عن واقع الحياة.
يبدو أنها دائرة أخرى من الوهم، ولكن أكثر جمالاً وراحة، فروح الإنسان تخشى الكثير من الأمور المجهولة التي تدفعنا للبحث عن مصادر للأمان، وإن لم تجد تخلق لـ نفسها آلهة أمان من صنعها، فربما تتحدث وتوحي لنفسها بأن ذلك صوت الآلهة. . .
فالحوار مع النفس يجعلنا بالفعل ننفتح على أنفسنا ونغوص في رحلة الأعماق مما يجعلنا نكتشف أنفسنا، مما ينعكس هذا على نوع من السلام والاستقرار، ولكن هل هذا برهان عن الإله! عن كيان خارج عنا، أم أن هذا الصوت هو صوت أعماقنا ليس إلا، لست أدري، ولكن مع هذا الصوت أشعر براحة من خلال التخلي عن متعة الحياة؛ يعني أن نقتل الحياة لنحيا، كيف يعقل هذا؟ ما كل هذه التناقضات التي أنا بصددها؟ على كلٍ سوف أستمر أن أتبع ذلك الصوت، فهو يمنحني الطمأنينة، وهذا ما أشتاقه، أياً كانت النتيجة فلن أخسر شيء. . .
تعمقت مع ذلك الصوت كثيراً حتى أن رجلاً من رجال الدين وجد في روحي ما يجعله متحمساً جداً إلى تلمذتي على يده، وكان هذا من أتباع الآلهة، ولكن من الجماعة التي يطلقون عليهم المنشقين أو البروتستانت، وليس من أتباع الآلهة المستقيمين. .
فهناك آلهة كثيرة، لكل جماعة إله خاص، ولكل فرد أيضاً إله خاص به داخل الجماعة، فهناك إله لـ البوذيين، وهنا إله الإسلام، وذلك إله اليهود، وهذا إله المسيحيين، نعم هناك آلهة أيضاً داخل كل جماعة تنقسم إلى

جماعات أصغر ولهم هم أيضاً آلهة والعجيب أنهم يتصارعون ويتنازعون ما بينهم؛ بينما آلهتهم تلهو مستمتعة على الكراسي فوق، ليتهم يدركون أنهم لعبة وهم بأيدي سلطة مقصودة للاستحواذ على عقولهم النيرة الحرة ويقررون احترام كل واحد لمعتقد الآخر، ويدركون أنهم ليسوا إلا نقطة في بحر المطلق، ولا نمثل كلنا إلا نقطة في بحر الكون الكبير. .

رجل الدين يدعى -مارتن- وهو كان شاباً طموحاً ومتحمس جداً لما يؤمن، فالتقى حماسه بشغفي إلى الخروج من هذا السجن الوهمي داخل الذات، ولو كأنها اتفقت النوايا، هو يريد انضمام أكبر عدد من الأعضاء لكي يحقق نجاح أمام الجماعة، وأيضا يحقق نوعاً من الرضا عن النفس عن طريق رضا الإله عليه، فهو يضم عضواً جديداً إلى الأسرة الكبيرة، فهو يقدم بشارة خلاص عن طريق الإعلان عن هذا المعتقد، فهو في الخارج يقدم نوعاً من الخدمة، ومن الباطن يبحث عن نفسه، الفراغ العميق يجعله في بحث أن أي شيء يجعله يشعر بذلك الشعور، أنه يفعل شيء مهم، رسالة عظيمة من الآلهة، وهذا الرضا الإلهي ينعكس عن الرضا عن النفس. . .

فهل هذا حقيقي. . ؟! أم أن هذه محاولة من الهروب من هذا الوحش وهو اللامعنى؟ وأما أنا فقد وجدت ذلك القبول والحب الذي تنشده روحي، ولكن دائماً كان هناك شيء ناقص كـ قطعة ف لعبة البازل غير موجودة لتكتمل الحقيقة أو السعادة، فهل كان ذلك حباً. أم كان هروباً من شبح الشعور بالرفض. . . لا أدري، ولأني كنت شغوفاً بهذا العالم الجديد، ولأني كنت ف حاجة لذلك الاهتمام الخاص، وجدت نفسي في هذا الطريق، وعزمت أن ألتزم بكل التعاليم

وقد تقابل هذا الشغف بحماس رجل الدين لما وجده فيّ من أرض خصبة

لتحقيق أحلامه، نعم فنحن عندما نفعل الخير يكون لنا ضمير مستتر لتحقيق رغباتنا وأحلامنا الخاصة، أو ربما لأجل الشعور بالذات، أو لراحة ضميرنا، أو في الأغلب للحصول على الجنة أو خوف من العقاب -الجحيم- فكم من الأمور لو بحثنا في أعماقها وطرحنا ذلك السؤال الكاشف، لماذا أفعل هكذا؟

ولو مشينا على الخيط واستمرينا في طرح السؤال قد نصل في النهاية إلى إجابة مختلفة كل الاختلاف عن إجابتنا في البداية. . فعندما تعطي متسول بعض النقود اسأل لماذا؟

-علشان هو محتاج وأنا بحب أخدم. .

-لماذا تحب أن تخدم؟

هكذا أوصانا الإله. . . لكي أذهب إلى الجنة. . حتى لا أذهب إلى الجحيم. أشعر في قرارة نفسي باللامعنى، وهذا الفعل يجعل لي قيمة في عين نفسي. . لكي يقول الناس عني أنني خدوم. . . لكي لا يقولون أنني بخيل. .

وفي الواقع يوجد في داخل أعماق كل منا فراغ معين، ولا يجد له إجابة، وهذا الفعل طالما تفعله بدون الوقوف على الأسباب الحقيقية، فهو يمثل أنانية بحتة، لكن في ثوب الحب وهذا الفراغ هو ما يدفعنا كـ المجانين لفعل أشياء كثيرة سطحية ونظن أننا بهذا نملأ ذلك الفراغ. .

ولطالما كان هناك شيء مجهول ناقص دائماً لم أجده في كل هذه المسيرة؛ ربما ليس في الأديان واستغلاله لعواطف الناس وجوعهم لـ المعنى المنشود وخوفهم من ذلك المجهول ولا في الخدمات والأنشطة الدينية المختلفة، في ظل كل هذا الكم من الازدواجية قررت أبحث، ولكن كيف أبدأ ومن أين .لست أدري! قررت ترك نفسي لتيارات الحياة لتحملنا حيث تريد ينابيعها

الخروج إلى المجهول

داومت على البحث في الكتب ومع الأشخاص في الخدمات وربما الصلوت، ربما تهدي من ورعي بعض الوقت ليعود ويرتفع عالياً ذلك الصوت في عقلي، فمن أنا؟ ومن وإلى أين؟ ولماذا يحدث لي كل هذا وما تفسيره؟ ولماذا أراد الرحيل؟ وهذا هو أكثر ما كان يشغلني. .

كنت أصغر من أن يدرك ذلك من خلال الخبرات وترابط الأحداث، ولكنه قبل رحيله قال ستدرك ذلك فيما بعد، فمتي يكون هذا وها هي تمر السنون ولا أفهم إلا القليل. . .

خرجت في الشوارع دون أن أحدد وجهتي، أخبرت البيت أنني سوف أذهب في رحلة لبعض الأيام مع أصدقائي حتى لا تقلق أمي لغيابي. .

استمريت في الشوارع وحاملاً شنطة صغيرة بها كتاب عن الأساطير القديمة اسمه -أساطير إغريقية- وقنينة ماء صغيرة وأعواد من الكبريت وإبرة وخيط، سكينة صغير من المطبخ، وها أنا ذاهب ولا أعلم أين أذهب غير أني أرغب في الهرب من كل دوائر الأفكار التي تحاصرني، وبعنف تنقض عليّ كل ليلة لعلي أجد أجوبة أو طريقاً لنفسي يمنحني بعض المعنى والسلام. . . .

وصلت لموقف العربات كان هذا قرب المساء، ركبت دون أن أسال إلى أين تتجه الناقلة؛ فبماذا يفيد السؤال؟ لطالما كنت لا أعرف إلى أين أريد الذهاب، وكنت قد عزمت في نفسي ورفعت وجهي إلى الله وقُلت قد خطواتي حيث تريد. . .

وها إني في تسليم نفسي كامل لعناية القدير في الدرب أسير كما يشاء

فليكن، دفعت الأجر للسائق كما طلب، ووصلت بعد حوالي الساعة وجدت السائق. . يوقظني ويقول -الآخر هنا يا أستاذ. . -
ترجلت من العربة وإذ أنني في موقف عربات أيضاً! ما هذا أهي الدنيا تأخذني وتعيدني في نفس المكان في دوائر تشبه الدوائر التي في عقلي وروحي. .
لحتى وقفت وحاولت التركيز وأدركت أنني في مكان غير الذي خرجت منه، فكل شيء يشبه كل شيء تقريبا إن لم نحاول الانتباه والتركيز والإصغاء لما يدور حولنا جيداً، ولا ندع التفاصيل الصغيرة تمر عبثاً. . ففي تلك التفاصيل تكمن الأسرار، وتكمن المعاني التي نبحث عنها، ولكن دائماً ما ننشغل بما نظن أنه مهم وننسى أن الأهم يكمن بين ثنايا تلك التفاصيل وما هو بين السطور، وليس ما يبدو واضح على السطور. . .
خرجت من بين العربيات التي على جانبي الطريق إلى شارع عريض به عربات من الاتجاهين. . وتقدمت بهدوء بطئ فلم عسانِ أن أسرع فهل يوجد ما يفوت من لا ينتظر شيء! ربما ما نبحث عنه يكون ليس ببعيد، وربما كان أقرب مما نظن؛ ربما كان داخلنا، ولم لا. . ؟! ونحن من نلهو خارجاً باحثين عن سراب. . . .
قطعت ذلك الشارع الكبير حتى وصلت لشارع أكثر ضيقاً ويبدو من مبانيه أنه قديم، ربما هذه هي المدنية قبل تلك التوسعات في الأراضي الزراعية، واستمريت وقد قل عدد المارة، بعد حلول الظلام ووجود لسعة برد نوعا ما. . .
هيا يا مجدي استمر، قطعت شارعاً تلو الشارع حتى وصلت لـ أطراف البلدة من جهة الغرب حيث مرتفعات الصحراء واضحة تبدو قريبة نتقدم

وحالما نصل نجد أمامنا طريق طويل أيضاً لنصل لـ القمة الثانية، وربما نصل إلى أعلى نقطة وننظر وإذ أننا أمام وادي أسفل منا ولا شيء غير ذلك ويكون أمامنا أم الإحباط والاستسلام إلى اللاشي أو يأخذنا الشغف أيضاً لما هو بعد ذلك الوادي. . .

إنه الفضول الذي يقودنا أحياناً للجنون وأخرى للنور وأخرى أيضاً للموت، إنه قمة جبل أيضاً وبماذا تختلف عما قطعت من مسافات عبر قمم الجبال وهنا أمامنا تحدي اتخاذ القرار إن نوجد لأنفسنا أمل للاستمرار أو نتوقف للموت والكثيرين الذين يتوقفون، كثيراً ما يكون علينا أن نخلق أملاً في أنفسنا بأنفسنا لنبقَ على قيد الحياة. . .

توقفت وإذ بي وحيداً وسط الصحراء لا شيء، لا أحد غير صوت صفير الصحراء، تسلل إلى قلبي الخوف ودخلت ارتعاشة إلى كل جسدي، لست أدري هل هي من فرض الخوف أو الصقيع لا أدري! كيف وصلت إلى هنا دون أن أعي، تجدني في حلم أم أني بالفعل سرقتني الخطوات؟ أم أخذتني نشوة الأحلام والمغامرة؟ لا أدري! فالكثير من الأمور في الحياة من الأفضل ألا تسأل، وأن تدع تيار الحياة يأخذك حيث يشاء. .

نظرت حولي جيداً في كل الاتجاهات، يبدو أنني على مسافة لا بأس بها حيث مسيرة الرجوع بعيدة وهنا الجو صقيع، وماذا أفعل أنا هنا وها قد وصل الهزيع الرابع من الليل. . .

أخذت في جمع بعض القش من هنا وهناك، ومن خلال عود الثقاب الذي معي أضرمت بها النار، وراح يسري في جسدي بعض الدفء اللذيذ في وسط عالم الصقيع، وقُلت في نفسي هذا جيد، لابد وأن تبقى على وجود النار فمنها لا تقترب الحيوانات المفترسة ومنها تنشر الدفء في جسدي وروحي،

وأنا جالس أمام النار أغفلت عيناي لبضع ثوانٍ، واستيقظت وعادت رأسي تثقل وأقاوم واستيقظ. .

وإذ بشبه رجل قادم نحوي من الظلام يبلغ من الطول ما يقرب إلى المئة والثمانون من الطول، عريض الكتفين وكل ما اقترب تتضح بعض من هيئته أكثر، ازداد الخوف وارتفع صوت دقات قلبي وازداد تنفسي مع كل خطوة يقترب بها حتى وصل إليّ، وما يفصلنا إلا بضع خطوات، وأنا كنت أرتجف من شده الخوف. . .

وسأل بصوت جبلي جهور

-من هناك؟!

قُلت مجدي، وازداد خوفي وارتعاش جسدي. .

اقترب أكثر كان رجل شيخ يقرب من الستين من عمره، وجهه أبيض باحمرار من ضي النار بوجه ملائكي، ولكن يبدو عليه الضعف على جسده الضعيف، ربما بسبب عمره المتقدم، وقال

-وماذا تفعل يا مجدي هنا؟

أردت أن أسأله أنا أولاً، من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟ وهل أنت بشري أم من عالم آخر؟ أسئلة كثيرة تدور في رأسي كـ العادة، ولكن لم تسنح الفرصة لكل هذا لأنه لم يتح لي فرصة الأسئلة، لطالما بدأ بطرح الأسئلة على ما يبدو فأنا الغريب هنا، فأنا من عليه أن يبرر سبب وجوده. .

أجبته غريب تائه في صحراء الوجود، أبحث عن ما لا أدري، ولكن يقولون في الروح خلود، وها أنا أمام روحي وأنتظر لكي أرى كيف للأمر أن يكون. . .

اقترب أكثر وأخذ حجر صخري وجلس عليه بالقرب مني، وبصوت به هدوء وسلام جعل قلبي يبدأ في الطمأنينة وقال:

-ومن أرسلك يا بني. . .
-أرسلتني تيارات الحياة، وأمواج البحر المضطربة، عاصفة الروح الهوجاء. .
-ولكن من أنت؟
سألته وقلبي به اضطراب نوعاً ما. . .
أجابني
-يبدو عليك الإرهاق والجوع، تعال معي ندخل من هذا الصقيع، وسوف أخبرك بكل ما تريد أن تعرف، لم تستعجل. . . !
-ندخل إلى أين؟!
-أمامنا هنا حيث أسكن. . . . تعال وسوف ترى. . .
أخذت أغراضي البسيطة وتقدمت أتبعه في حذر، فحتى الآن لا أدري من هو، ولم يقطن هذه الصحراء، ولا إلى أين يأخذني. . .
مشينا ما يقرب إلى المئة متر تقريبا، وإذ به يقترب من صخرة يبلغ ارتفاعها بعض الأمتار وبها باب خشبي متهالك، فتحه وتقدم أمامي، وكان هناك ضوء خافت من الداخل على ما يبدو نور شمعة أو لمبة بالزيت كانت في الغرفة الداخلية. .
فكانت عبارة عن مغارة من جزأين؛ عبارة عن غرفتين الأولي هي التي تأتي بعد الباب مباشرةً وهذه خالية ولا يوجد بها غير أماكن للجلوس بجور الحائط وهي عبارة عن كتلة صخرية أعلى من مستوى الأرضية بما يقرب من عشرين سم، وعلى نهايتها باب عبارة عن فتحة صغيرة حوالي متر تقريباً مربع ويفتح على غرفة بها مكان يشبه السرير، ولكنه كان عبارة عن كتلة صخرية أيضاً ولكنها من ذات الصخر غير منفصلة على ما يبدو أنها منحوتة من الصخرة الكبيرة ذاتها، هذا على الجهة اليمين من الغرفة، أما الجهة

الشمال يوجد حجر على ارتفاع عشرون سم أيضا وأمامه ما يشبه المكتب من الصخور، أيضاً حجر أكبر مسطح وعليه بعض الكتب والأوراق، وأما في الجهة الموازية لـ فتحة الباب يوجد في الجهة اليمين بعضاً من الأدوات ومستلزمات الحياة وما شابه، وفي الوسط فتحة لا تصل إلى المتر نحو ما لا تستطيع أن تدركه العين من الظلام، ربما سرداب، ولكن إلى أين لا أدري. . .
أشعل بعضاً من الحطب ووضع عليه القليل من المياه في إناء من الألومنيوم لكي نشرب شاي. . . .
هكذا قال:
-هاعملك الشاي وندردش واحنا بنشرب. . .
حينها أخبرني أنه راهب ويقطن في ذلك المكان منذ زمن، ولا ينزل إلى المدينة إلا كل شهر تقريباً، ولكن يأتي البعض إليه للاسترشاد والتبريكات. .
وأخبرني عن أمور كثيرة لا يسعني أن أوردها الآن، ربما أذكرها فيما بعد كما من أمور من شأنها أن تخلق بلبلة بين شعب الرب، وربما تخلق هزة للأنظمة الاجتماعية في العالم، كما أخبرني أنه كان يسكن الدير الذي في حضن الجبل حتى اختلف مرات كثيرة مع سياسة الدير في تعاطيهم مع الأمور المادية والإتجار بما منح مجاناً، وأمور كثيرة مشابهة حتى قرر الرحيل، وانتقل بقرار من البابا للعيش وحيداً بناءً على رغبته، ولكن تابع لـ مسؤلية الدير، وأخبرني أن في البداية كان بعض الرهبان يأتون لزيارته والاطمئنان عليه، حتى اقتصر على راهب صغير في السن ملتحق جديد إلى الرهبنة وبعد فترة انقطع، وتركه وحيداً ولكن يقول إن عناية الله القديرة هي من قادته حتى الآن. . .
وسألني -أخبرني ما قصتك بني. . -

أخبرته كل شيء عن الرحيل الذي لا أعلم لم كان، وعن صراع روحي ونفسي، والبحث عن ذاتي، عن ما حدث مع أحمد وميريت، وعن حبي لـ زينت، وعن خوفي من القادم وهل سوف يعيد التاريخ نفسه بسبب هذا الحب، فهل مثل هذا ما كان يخشاه أبي؟! كما أخبرته عن رحلتي هذه، وكيف أنني ذاهب حيث لا أدري، كل شيء أخبرته عنه. . .

وقُلت هل لك أن تساعدني؟!

أجابني، بالتأكيد يا بني، أنت شاب مجتهد ولطالما أتيت إلى هنا بحثاً عن السبب وعن المعنى، ولطالما أنك طرحت الأسئلة وكنت مختلف ورفضت أن تسير مع القطيع. .

فالحياة سوف تفتح أبوابها لك، إن الحياة تمنح لهؤلاء الأشخاص المغامرين الباحثين عن طريقهم الخاص ولو تطلب الأمر أن يكونوا في قلب تلك الصحراء. . .

فالإنسان يحتاج من وقت للتأني أن يبتعد مسافة كافية، ويدخل تلك البرية؛ ربما بها جوع، جفاف، وحدة، ولكنها طريق الصمود والقوة والمجد أيضاً. .

فالصحراء هي قرار ربما تعتزم وتدخلها في قلبك وأنت وسط الجميع، وقليلون الذين يتقنونها، ويوجد من يقطنها ولكن يحمل في قلبه كل العالم همومه وضوضاءه. .

أخذنا الحديث حتى شروق نور الصباح؛ قال: دعنا ننام قليلاً فأمامنا اليوم طويل وبالمساء نكمل حديثنا، وغداً تعود إلى المنزل وإلى أمك إلى الحياة، ومن وقت للتاني متى تريد تعالى كما تشاء، أو تعالى كل شهر إن استطعت. شكرته كثيراً على رحابة صدره وكرمه ولطفه ومحبته التي امتلئت بها،

وأفصحت على ما نويت عليه بأنني سوف آتي للاسترشاد ومتابعة دورس الإيمان والحياة. . .

وأجابني: ليكن ما تريد، وقال مازحاً: أنا هنا دائماً فإلى أين أذهب. . ؟

وأخذت نفسي على الحجر الذي يشبه السرير وتمددت عليه، ومن شدة الإرهاق والتعب لم أشعر بشيء غير تلك الراحة التي طالما تمنيتها، كما أن هذا المكان له سحره وجاذبيته للهدوء والسلام والتأمل والأصغاء، لعمق صفاء الحياة التي في الروح. . .

نمت نوماً عميقاً ولم أستيقظ إلا على صوته الوديع، ففتحت عيناي، وإذ لا أدري كم من الوقت استغرقت في النوم، هل أنا في المساء أم الصباح، فسألته. .

قال قد مال النهار إلى الغروب، وأريد ألا يفوتنَّك منظر الغروب هذا. .

أخذني إلى الخارج وقال: انظر هذا الجمال وتأمله، فلن ترى هذا الصفاء كثيراً، إلا متى اعتزمت صعود الجبل وتغلغلت في قلب الصحراء وابتعدت عن ضوضاء المدينة. . .

سأتركك مع هذا حتى أعد لك بعض الطعام. . دخل إلى المغارة. .

ووقفت أنا أنظر ما هذا الإبداع، إنها لوحة فنية مرسومة بدقة متناهية، قرص أحمر يميل إلى الذهبي، يقترب من الاتحاد بذلك الجبل في الأفق البعيد، ويرسل أشعة ذهبية متناسقة مع رمال الجبل، وتعكس ضوء سحري على وجهي، به دفء كدفء حضن الأم في ليلة الشتاء الصقيع، ما هذا الإبداع والجمال! فكم يكون جمال منسقها وراسمها ومانحها ألوانها البديعة! فكيف أصف سحرها وتأثيرها على قلبي وفي روحي؟ تُهت بها حتي انتبهت على صوت الراهب الجهوري الوديع. . .

-تعال يا بني لنأكل لقمة. .
على ماذا تنظر بعد أن غابت الشمس، قد رحلت، لا تعلق نفسك بالراحلين دائماً، وإلا لن تستمر الحياة. . . .
عش الحياة واستمتع بجمالها وعندما تغيب عنك وترحل لا تتشبث، دير ظهرك لها وانتظر شروقها من جديد. .
فإن وقفت تنظرُ لها بعد غروبها فسوف يفوتك شروقها البديع، قد تظن أنها غابت، لكنها لا تغيب أبداً بالطبيعة فهي موجودة في الجانب الآخر، وبطريقة أخرى؛ ربما في شخص آخر، فالجمال في كل شيء وكل شخص متى أردت أنت ذلك. .
لا تقف عند نقطة نادماً، بل عِش كل وقت واستمتع به كما يكون في اللحظة الحاضرة وتقدم للأمام. .
فإن شئت أم أبيت سوف يمضي العمر وتنتهي السنون، فإن كنت واقفاً بعد الغروب ويؤلمك الفقدان أو ذهبت لترى من جديد لحظة الشروق فعداد الزمن مستمر ولا يعيد لك الدقيقة مرتين. . . .
تحركت لكي أدخل دون أن أنبت ببنت كلمة، حيث إنني بالفعل كنت واقفاً وسرح عقلي في الماضي والغيابات والرحيل، كيف له أن أدرك فيما كنت أفكر أم أنه محض صدفة! لست أدري سوى أنه رجل ذو هيبة، وقار، شموخ، اتضاع حكمة، ونظرة ثاقبة. . .
على ما يبدو أن هذه السنون لم تمر عليه مرور الكرام، يبدو أنه مر بخبرات وتجارب جعلته صلب. . وحليماً في ذات الوقت. . دخلنا لتناول العشاء وكان صمت بيننا، أردت أن أكسر ذلك الصمت الذي تسلل لروحي بعد مشهد الغروب، هذا هل لأني أدركت تفاهة الأمور أم تجدي ارتفعت

فوقها ولم أعد أبالي بها أم لأني شعرت أنني مكشوف أمامه؟ لست أدري! فعندما تتسلق الجبل وتنظر من فوقه للمدينة والبيوت وهي في الأسفل تدرك حجم الأمور على حقيقتها فكم هي صغيرة فتخيل في كل قطعة تبدو أمام عينيك صغيرة، هي بيت وتلك عمارة سكنية، ولكل واحدة بها أسرة ولكل أسرة تصارع مشكلاتها التي تظن أنها نهاية الكون، وأنت من فوق ترى صغر تلك الأمور، وربما تفاهتها فلا يستدعي الأمر كل هذا الصراع، وربما علينا أن نقبل بالأحداث بصدر رحب، أي ما كانت علينا أن نقبل الألم والصراع، إنه جزء من الحياة ونبحث دون خوف أو اضطراب، فما الحياة إلا مسيرة بحث واكتشاف. .

وتدخلت وقُلت له لم تريدون أن تمنعوا الناس من التفكير والاكتشاف؟ هل الله وضعكم وصايا على العقول لتحددوا لها كيف تفكر وفي ماذا تفكر وهل صحيح ما حللتموه على الأرض يكون حلال في السماء وما ربطتموه يكون مربوط في السماوات. . ؟

أجاب مازحاً: من نحن أولاً ومن هم الذين تضعني في صفوفهم دون أن أدري. . !

أحرجني بحسه الفكاهي. .

قلت مازحاً لكي أخفف من حدة توتري: أقصد رجال الدين، أليس أنت واحداً منهم. . . !

أجابني دون مزاح كمن يريد أن يقول إن وقت المزح فهو للمزح، ولكن حين يكون الوقت للجد فيكون وقت الدرس وما هو إلا وقت تعليم، صدقت يا بني هكذا أبدو، فقد نبدو بالشكل متشابهين، ولكن كل شخص منا متفرد وله وجهات نظر مختلفة، فيوجد من يتبع القطيع ويعيش ويموت على

نفس الدرب، ومنا من يختار المغامرة، الانحراف عن المألوف، ويسيرون في الطريق الصعب، ليس دائماً الطريق الواضح والذي يتبعه الأغلبية أن يكون صحيحاً. . .

فالذين يخشون عقول الناس لا يريدونهم أحراراً، فـ الفكر هؤلاء المهزوزون من داخلهم لديهم مصالح يخشونها أو يتربحون من تغييب عقول البسطاء، إما للحافظ على السلطة أو لمكاسب معنوية أخرى أو مادية. . .

فكم من الموالد الدينية إنما صنعت بهدف التربح المادي والإتجار بالبسطاء الذين يتعلقون بـ قشة الأمل في لحظة غرق وهم يستغلون ذلك الاحتياج. .

أما هؤلاء الواقفون على أرض صلبة يدعوك حراً و يخشونك حتى إن هدم فكرك أرض قناعاتهم، لطالما كان مقنعاً. . .

فإنهم يصنعون آلهة أخرى ويدعون الناس لعبادتها باسم الله طمعاً في الأموال والسطلة. .

فأنت متى أردت أن تبقى على الكرسي وفي هذه المهابة والعظمة وهذا المجد. . لا تدعهم يفكرون قول هذا لا يصح وذلك حرام وهذه الكتاب جريمة، هذا لا يتفق مع معتقداتنا، ولكن فالحقيقة من يثق في معتقداته لا يخشَ معتقدات الآخر. . .

ربما هذا يا بني من ضمن الأسباب التي جعلتني أرحل عن الدير. .

أنا آسف لو سؤالي ضايقك أبانا. . .

بالعكس يا مجدي إنما الأمل كله في هؤلاء الشباب، كل من مثلك الذين لا يسبحون مع التيار، بل لا يهابون الملابس الكهنوتية ويقفون بكل شجاعة وعلى الأقل يطرحون السؤال. .

وقال مازحاً لكي يخرجني من حالة خجلي وارتباكي، حيث إنني على ما يبدو

أدخل في عالم المحظورات والتابوهات بالنسبة لرجال الدين خاصةً والشعب التابع عامةً: أنا هنا لكي تطرح الأسئلة وأنا أجيب. . وأطلق ضحكة من القلب. . .

لم أجد نفسي إلا ضاحكاً مع خفة روحه وجمالها الصادق. . .

وهذه شجعني أكثر لطرح الكثير من الأسئلة الأكثر جدلاً. . فقلت له:

ماذا عن الدين؟

يا بني، لا أريد أن أشتت تفكيرك بأمور لا جدوى منها غير الصراع مع النفس، وربما صدام المعتقدات، وبالتالي مزيد من الاحتقان والصدام مع الأنظمة الاجتماعية. .

ولكني أريد أن أعرف، أن أفهم أبتي. . ؟

الدين وجد بوجود الإنسان منذ قديم الزمان، وكان له أسبابه الكثير على مر العصور، فكان في كثير من الأوقات يستخدم من قبل الملوك لبث الخوف في نفوس الشعب والخضوع لهم وطاعتهم، حتى وصل في بعض الأحيان جعل الملك في نصاب الآلهة. .

وأحياناً حاجة الإنسان لملأ الفراغ الذي بداخله يجعله يفكر في أهمية وجود كائن خارج عنه، يحميه، يشعر به، ويعطيه أمل في جنة موعودة. .

الكثير من الأمور التي تفسر سبب اعتقادات الإنسان بوجود الإله، واستخدامه للطقوس المختلفة. .

ولكن لو بحثت في تلك الأمور لوجدت فجوة عميقة بين ما يعتقد في ذلك الإيمان الغيبي والمنطق العقلي. .

فإذا سألت شخصاً لماذا تصلي وتتعبد. . .

سيقول يجب أن نمجد الله ونحكي ونطلب منه ما نريد. . .

فهل الله في حاجة لتمجيد الإنسان له؟ فهل الله لا يعي ذاته فيحتاج تمجيد الإنسان لكي يعي ذلك ويتذكر دائماً أنه عظيم؟
وهل هو يحتاج لأن نطلب منه؟ أليس هو مدرك لكل شيء ويعلم ما في نفس الإنسان؟ لطالما هو من خلقه وأوجده. .
والكثير من المتناقضات لا يسعني أن أسردها لك الآن يا بني، ولا أريد أن أشتت أفكارك أكثر من ذلك. .
وماذا عن التوراة وقصة الخلق التي في سفر التكوين؟ وماذا عن. .
قاطعني مازحاً: يكفي ماذا واحدة لنحكي بها أيام يا مجدي. وأطلق ضحكته المعهودة. .
إن هذا الكلام ربما يكون صادم للكثيرون ممن لا يرغبون بالبحث والتفكير، ولا يريدون أن يرهقوا عقولهم في القليل من التفكير، ممن يقبلون بالثوابت والمقدسات. . .
إن قصة الخلق التي ذكرت في التكوين ما هي إلا رمزية، وهي مأخوذة مع بعض التغيرات من الأساطير الإغريقية والبابلية التي سبقت التوراة بـ آلاف السنين. . عندك مثلا قصة الطوفان والفلك ذكرت في الأساطير السومرية أولاً، ومن ثم ذكرت في أسطورة جلجامش البابلية. . عبور موسى في وسط البحر لها تفسيراتها اليوم المختلفة عن ما نظنه. . الكثير يا بني الكثير، لا داعي لكي ما نرهق أنفسنا. . . فالبسطاء يسبقون اللاهوتيون إلى ملكوت السماوات. .
بماذا تؤمن أبانا، هل الله موجود؟
أؤمن بوجوده يا بني، ولكن ليس كما يتصوره أصحاب الديانات الحرفيين. .
أؤمن به في الحب، في العلم، والفن، والإبداع؛ أومن به في الإنسانية، في

الرحمة، في المرونة، والبساطة؛ أؤمن به في روحي، في طريقي الخاص. .
أؤمن به هو المطلق الذي لا يحده شخص، ولا تمتلكه فئة، ولا يحصره دين.
إنما هو الابتسامة، الجمال، الاحترام، الحرية المسؤولية. . هو كل فعل حياة.
وقُلت: وماذا عن الحب يا أبتي. . .
قُلت هذا كمن هو جائع ويريد التهام قدر ما يستطيع من المعرفة والعلم خشيآ من فقدانه، ولا أريد أن أضيع فرصة أو دقيقة مع هذا الرجل إلا وتعلمت منه. .
لكن هو قاطعني، وقال: كفى يا بني، الساعة تأخرت، هيا لتخلد للنوم، فالجسد يحتاج لبعض الراحة أيضاً. . وأنت مازلت شباباً. . وابتسم ابتسامته المعهودة الصافية، -ومازال في العمر الوقت لك كما ترى- قالها مازحاً وأشار إلى جسده المنهك. .
أومأت برأسي بالموافقة. . .
ووقفت لحتى أدخل الغرفة الداخلية. . .
وضعت رأسي وأخذت الأفكار تحاوطني والأسئلة تعصف بروحي إلى أن أغمضت عيني وصليت الابانا واسترخيت تماماً مستغرقاً في النوم. .
لا أدري لماذا هدأت هكذا بعد الصلاة، يقولون إن الصلاة تمنح النفس السلام والهدوء، فلست أدري هل هذا حقاً أم أنني هدأت لأنني انشغلت بتلاوات الصلوات عن التفكير العاصف؟ ولكن على كل سواء إن كان هذا فعل الصلاة أم عوامل نفسية ومزاجية كل ما أدريه أنني نمت بعدها نوماً هانئاً. . .
وفي الصباح بعد صلاة القداس مع بعض تناولنا الفطار، وهو قليل من الفول المطهي والخبز الناشف، مما هو شبيه بخبز القربان. .
وقررت أن أطرح عليه الأمور قبل أن أغادر. . فسألته:

ماذا عن الحب، هل هو حرام؟
هو ليس حراماً، ولكن كل شيء له شروط، السن، التوافق الروحي والنفسي والاجتماعي، والقدرة على تحمل المسؤولية؛ ففي بعض الظروف لا يليق. .
ولا يجب أن يدفعكم إلى ذلك الشعور بالفراغ أو الوحدة أو الاحتياج، فإن لم يكن نابعاً من الفيض وملأ الحياة فيك، لا تقدم على ذلك القرار. . . نعم قرار فالحب ما هو إلا قرار عميق بالغوص العميق في تفاصيل إبداع الخالق ومشاركته ذلك المنح الصافي من القلب. .
وهل الأغاني حرام؟
ابتسم وقال: مالك اليوم داخل معايا تحقيق سؤال وجواب! وأطلق ضحكته المعهودة. . .
لا يوجد شيء اسمه حرام. .
يوجد يليق أو لا يليق. . .
أومأت برأسي موافقاً، ولكني لا أدري أين المعضلة بين المصطلحين، فهم يعنون نفس المعنى، يختلف التعبير والمعنى واحد! ما علينا. . .
نعم إن كل شيء يجعلك تتعلق بيه وتبتعد عن الإله حرام. . .
-أبتي أنت قُلت حرام أهو، ليس نحن من نقول حرام، بل. . .
قاطعني ضاحكاً سهواً، -يا ولدي إنما أنت شرير- وأطلق ضحكة أخرى، تبسمت حتى لا أحرجه أكثر. .
كل شيء مرتبط بالحياة وبهجتها حرام. . ! لا أدري كيف يكون هذا. . ربما معه حق، إن في هذه السن ربما يتطلب مسؤولية معينة، ولكن يجدر بنا طرح الأسئلة بطريقة مختلفة، فهل أن أعيش مرحلتي العمرية حرام. . ؟ أن أحب، أحس، أبكي، أفرح، هل المشاعر حرام؟

دعوهم يعيشون عمرهم ومرحلتهم، دعوهم يقتربون من الشمعة وتلسعهم ويدركون بأنفسهم، دعوهم يختبرون الحياة بأنفسهم، دعوهم يستمتعون بالحياة ويحبونها. . لا تقتلوا تلك الحياة وهذه الطاقة التي في أرواحهم والتي ولدوا بها؛ تتحدثون عن الإله فكيف له أن يخلق ويوجد تلك المشاعر وأنتم تقتلونها، كيف ألا يقبلها ويحترمها من أوجدها بالأساس. . دعوهم يكونون أنفسهم على عفويتهم. . فما هم يولدون إلا كـ ملائكة على الأرض، ملائكة القلب والروح. . . ولكن في مجتمع يشوه تلك الحقائق وهذا الجمال الطبيعي. . حتى يجعلوننا نخشى كل شيء، حتى أننا نخشى الحياة ذاتها. . فنعيش في قوقعة الذات، في دوائر اللاوجود للأبد. . .

ماذا عن الزواج. . .

الزواج في المسيحية سر مقدس، وضعته الكنيسة، وفيه تتم طقوس وصلوات من قبل الكاهن. . . حتى يمنحهم بركة السر المقدس وما جمعه الله لا يفرقه إنسان. . . وهكذا قال الله في التوراة. . ليس جيداً أن يكون آدم وحده صنع له معيناً نظيره. . وقال أيضا لهم انموا وأكثروا واملو الأرض. . وكما كان آدم لـ حواء هكذا يكون رجل واحد لـ امرأة واحدة. . وامرأة واحدة لرجل واحد. . .

لو أحد وجد نفسه بعد الزواج أنه غير متوافق مع زوجته أو شعر أن قراراه خطأ لأي سببٍ كان ومش عارف يكمل يعمل إيه. . . خلاص يعيش حياته مع شخص مجبر عليه؟

هذه تعليم الكنيسة يا بني، بالصلوات يتمم السر المقدس ولا يجوز أن يفترقان. . . .

ما هذا الكلام؟ لا يجوز أن يفترقان بينما يجوز أن يعيشان مجبران! أي عقل يقول هذا؟ وبماذا تنفع صلوات السر في قلوب لا تشعر بالانجذاب والحب نحو بعضها البعض من غير ذلك التوافق الروحي والانسجام القلبي أو من الذي يقدس الآخر. . الصلوات والطقوس أم الحب يقدس الطقوس ويعطي لها معنى، قد خلق السبت لأجل الإنسان، لا الانسان لأجل السبت. . أليس هذا تعليم الروح لا الحرف. . وأليس هو من قال كونوا رحماء. . فمن أين أتيتم أنتم بكل هذه القسوة. . !

أنت مشكلة يا مجدي. قالها مازحاً .

يا بني هذه تعليم الكنيسة، أسس ونظام المجتمع في حاجة لها وبدونها يحدث خلل ما. .

وأنا عندما أعطي درساً فأنا أقدم لك التعليم والطقوس كما تسلمناها. .

ولا أريد أن أشكك الناس فيما يؤمنون، ويل لمن تأتي منه العثرات. . فما أعرفه أنا ودرسته وقناعاتي ووجهات نظري لو خرجت للعلن. . لن يتحملها الكثيرون يا ولدي. . .

-أن تقول ما لا يتحملوه وتحدث الصدمة ومن بعدها الوعي، أم تعيشوهم في الضلال وفي غيبوبة من الحقيقة؟!

-يوجد الكثير يا ولدي من الأسرار حتى أنا لا أعلمها، ولكن كل واحد يعلم بقدر السلطة المسموحة له. . فالبابا أيضاً يعرف الكثير ولديه الكثير من الوثائق السرية. . . التي لو اطلع عليها الشعب. . لأسقطت أنظمة وصنعت خللاً على التوازن الاجتماعي. . .

-ومن الذي أعطاكم حق الحفاظ على هذا التوازن على حساب المعرفة وعلى حساب الحقيقة يا أبتي. . . .

- أراك تعبث في مناطق خطرة. وأطلق ضحكة، وقبل أن أرد قاطعني مازحاً
-انتهي درس اليوم يا شقي
اترك القليل للمرة القادمة، وإلا انت مش عاوز تيجي ليا تاني؟-
بلى يا أبتي، أحببت الشاي من يديك. . قُلت هذا مازحاً. .
الشاي فقط ! وأطلق ضحكته المعهودة.
وقُلت: وتعليمك يا أبتي، أحببت كل شيء يا أبتي. .
على ما يبدو لم ولن يفلح كلام ولا مواعظ في منع تدفق ذلك السيل من المشاعر الجارفة الفياضة، إنها تجذبني كـ مغناطيس لم أستطع المقاومة، ولم يستطع الصمود قلبي أمام عينيها الزرقاويتين، ولا أمام الشعر الأشقر المنساب المتطاير مع نسمات الريح. .
إنها كما ولو هي ملاك هبط من السماء، فحتى موج البحر لم يستطع أن يقاوم الصمود أمام جمالها الفاتن، وملامحها الطفولية، وتفاصيلها الملائكية، ولا أمام رقة روحها المفعمة بالحياة، فهو يداعب كطفل قدميها، ويعود مسرعاً إلى أدراجه، ويكرر تلك الحركة في بهجة العاشق الذي لا يستطيع الصمود أمام محبوبته من شدة خفقان قلبه وزلزلة وجدانه، فيبتعد ليلتقط أنفاسه ويعود إليها ليأخذ خطوة أعمق، وهكذا يتوالى القرب والبعد، إنها المرحلة الخصبة، مرحلة انطلاقة الروح، وانطلاقة تلك المشاعر الجياشة. . .
فمن يستطيع الوقوف ضد تيار الحياة والطبيعة. . نعم أريد ألا أغضبك أيها الإله الأعظم، ولكن قُل لي كيف أنزع مني طبيعتي التي أنت خلقتها؟ كيف لا أحبها؟ كيف لا أفكر؟ كيف أقتل تلك المشاعر الجميلة؟ أليس أنت من تحب الجمال! فهل يوجد جمال بقدر هذا الجمال النقي، المشاعر الصادقة العذبة! يا إلهي أي تناقض هذا، أي صراع! لماذا تريد أن تضعنا

بين حجري الرحى؟ كيف تخلق فينا هذه الحياة الفياضة وترسل أنبيائك ليمنعوها ويحرموها. .

أخشى أن يكون هذا ليس كلامك كما يزعمون. . وإن كان هذا كلامك فإني أخشى أن تكون أنت لم تخلق هذه اللوحة الفنية من تداخل كل تلك المشاعر المفعمة بالجمال الإلهي. . .

كان كل شيء بسيط في ذلك الوقت، حتى الحب والتعبير عن تلك المشاعر والوسائل بسيطة جداً كنت أنتظرها حتى تخرج على عتبة منزلهم لأختلس نظرة. . وآه لو تلاقت عيناها بعيناي، تدخل القشعريرة كل جسدي. .

والوقت يتوقف على تلك اللحظة التي تختلط بها كل المشاعر متداخله في أيقونة جمال. . إذا ما استطعنا أن نخرجها ونضعها على لوحة. . . .

وعندما كنت أنتظرها أمام باب المدرسة وكنت ألقي أمامها بالورقة المطوية لتأتي من خلفي وتلتقطها. . حيث كتب بها كلمة فقط -بحبك- ولست أدري ما أصاب عقلي بالجنون. . . . لتأتي هي في اليوم الثاني وتكرر ما فعلته أنا. . ها هي الورقة مطويه بفن ومزخرفه بالرسوم. . لتجيب -بحبك-

وجاءت لحظات الرحيل على أمل اللقاء يوماً ما لمتابعة الدرس والتعلم. .

وداع ذلك الرجل الوقور. . ما بنا نلتقي لأسباب أو دون أسباب، وإما أن تتلاقى أرواحنا حتى تأتي لحظات رحيلهم ونرحل ونودع لنلتقي بآخرين، وحتى يصيرون جزءً منا ونحن منهم، حتى تأتي حتماً لحظات الوداع. . . .

ووقفنا أمام تلك اللحظة في وداعٍ صامت. . العيون مقابل بعضها يجمعهما كل تلك الأحديث والسمر والذكريات القليلة العميقة التي جمعتنا. .

كم هي صعبة تلك اللحظة. . لحظة الوداع عندما تقول للقريب -انتبه لنفسك. . - والأصعب هو الوداع دون اتفاق، دون كلام، دون أسباب

واضحة. . فكم هي صعبة تلك المشاعر المختلطة بالحزن وألم الفقد، وإن كانت على أمل اللقاء؛ فكم تكون عندما تودع عزيزاً وأنت على يقين أنه لم يعد ما يجمعكم يوماً ما لن تلتقوا مرة أخرى، وكم أصعب عندما تتقابلون يوماً وعيونكم تنظر بعضها لبعض حاملة كل الألم، كل الصور والذكريات في صمت، ولا تستطيعون الكلام، كأنما أصبحنا أغراباً أو لم نتقابل يوماً من الأساس. .

وذهبت عائداً من حيث أتيت حاملاً معي كل هذا الوعي والتدفق العاطفي في صفاء ذهن تمنيت أن يدوم كثيراً، ولكن لطالما كان وجودنا بين تلك الفوضيء والضوضاء وكل هذا التناقضات التي تشتت هذا الصفاء لنعود للبحث من جديد. . أو نذهب في عزلة أخرى لنجدد نشاطاتنا ونبدأ سلسة البحث من جديد، لطالما كان يتوق إليها الإنسان. .

البحث والسفر

ولأني كنت شغوفاً باحثاً مطلعاً، أخذني شغفي هذا في رحلات السفر الكثير حتى تحول جزء كبير من ذلك الانطواء المبالغ إلى الوعي بالحياة والأشخاص، مما جعلني أتقرب إلى الكثير من رجال الدين الكثيرون. .

وكلما لمسوا في ذلك الشغف تشجعوا أكثر، وتطلعوا أن أكون حاملاً رسالة الدين والبشارة إلى الشعب، فالتقيت بجماعة من الرهبان المتبتلين. . هؤلاء الذين أخصوا أنفسهم لأجل الرب وحرموا أنفسهم من ملذات العالم، فهم غير القساوسة المتزوجون الذين يخدمون ويأتي الليل ينامون بين أحضان زوجاتهم، أما هؤلاء الرهبان يعيشون في عزلة بعد مسافة، وحدة، وحشة، غربة، كثير من المشاعر المتضاربة والمتداخلة، ربما تتحرك مشاعرهم لـ أحد الفتيات، لكن يمنعون حاجاتهم ويمتنعون عن نداء الطبيعة التي في داخلهم. .

لا أدري إذا ما كان هذا معقول وأنهم على حق، أم أنهم يتبعون أنفسهم، وهل هذا ما قاله لهم يسوع. . فأنا في حيرة عميقة، كيف ننقد كلام الله ذاته، أليس هو من قال ليس جيداً أن يكون آدم وحده اصنع له معين نظير, وأليست الكنيسة ذاتها قد وضعت الزواج سراً مقدساً داخل الكنيسة! فماذا يضر إن تزوجوا وخدموه؟ أليس هم بشر وهو الإله من خلق في نفوسهم تلك المشاعر والأحاسيس الإنسانية العميقة، وليس هو الذي خلق تفاصيلهم هذه. . فكيف باسمه يفعلون ذلك الحرمان مستخدمين الكبت تحت مسميات براقة وفي ثوب فلسفي باهت! أليس يسوع قال من نظر

إلى أمره في قلبه فقد زنى بها في قلبه، فهل يعقل لبشري أن يكون في حاجة لـ نداءات الطبيعة الجسدية والنفسية والروحية أيضاً ولا يستجيب! لست أدري حقيقة الأمر. . ألا وإن هذه الأفكار تصارعني كثيراً ولا أجد لها بر أمان. . .

ولكن كيف للكنيسة أن تكون بهذه القسوة مع أبناؤها، ومن صاحب فكرة التبتل هذه؟ كيف ننكر طبيعتنا البشرية، ووصايا الله، أي وصايا وأين كتبت، وإن كانت هذه إرادة الله فلم خلقنا بهذه الحاجات الإنسانية الراقية لست أدري؟ ما هذه الازدواجية، فالكنيسة لا تقبل أن يتزوجوا وتتستر على جرائم الاعتداءات الجنسية التي تقع مع الأطفال والكبار وتستتر على التلاعب بـ عواطف الشعب البسيط من قبل رجال الدين.

الحب و الدمار

عندما أحببتها كنت صغيراً وكل مشكلتنا هي هل الحب يليق أم لا يليق بحسب المعتقد المسيحي ومن وجهة نظري، ولكن الآن بعد ما كبرنا وأدركنا أصبحت المعضلة أكبر بكثير. . . حين زيارتي الثانية للأب الكاهن ساكن الجبل الوحيد. . سألني الكاهن ماذا فعلت مع تلك الفتاة التي استطاعت أن تخطف قلبك كل هذه السنين التي جعلت من حياتك وحواراتك معي تدور حولها بشكل مباشر أو غير مباشر. . .

أخبرته عن أفكاري وصراعات قلبي، أخبرته أنني مزمع على أخذ الخطوة. . .

وضع يده على رأسه ' كمن يحمل هماً. . .

أخشى مما أنت مزمع على فعله يا ولدي، المجتمع الذي نحن فيه لا يقبل بهذه الأفكار، لا يعرف قبول الاختلاف، وأيضا ديننا يقول لا تقعوا تحت نير مع غير المؤمنين، لا هما منا ولا نحن منا. . .

وماذا يفرق كلامك عن موقفهم؟ ما هذه الازدواجية في المعايير يا أبانا!

ليس هذا ما أقصده، ولكن فتح هذا الأمر ما هو إلا خراب يا ولدي، وكل الذين دخلوا الحرب هذه خرجوا مهزومين. . .

والحب يا أبتي. .

الحب لـ أبناء الدين الواحد.

كيف يا أبتي، الحب ليس له دين. .

أعلم يا ولدي، ولكن نحن من صنع له دين وربما طائفة. . ألا تعلم أننا نحن الأرثوذكس لا نقبل بالزواج من أي طائفة مسيحية أخرى إلا لو تم عماد

الشخص من جديد على المعتقد الأرثوذكس!
لكن يا أبتي نحن في قانون الإيمان نقول نؤمن بمعمودية واحدة، وإيماننا المسيحي واحد. .
ضحك ضحكة مصطنعة كمن أراد تغيير الموضوع وقال: مالنا ومال الكلام ده دلوقتي، خلينا فـ موضوعك اللي ناوي تودينا فـ داهية بسببه. . عاوزك تشيل الفكرة دي من دماغك خالص، البلد مش ناقصها فتنة. .
ودخل إلى المغارة وتركني مع دوامة الأفكار! ماذا نفعل وماذا سوف يحدث؟ هل سنتخلى عن حبنا أم سنواصل ونكون مختلفين؟ فالحياة ترغب في أولئك المختلفين الذين يتحدون الواقع ويصمدون أمام تقلبات القدر ويصنعون الاختلاف. . ويحطمون القواعد ويسلكون السبل الغير مألوفة. . . فهل سوف ننجح. . أم نكون نحن عود الثقاب الذي يشعل النار. . وهذه ليس كـ أي نار. . . إنها نار تشتعل ولا أحد يطفئها. . بل الغالبية من الناس تزيدها بالوقود، والبعض الآخر يقفوا مشاهدين كمن يشجع اللاعب الأفضل. . . والبعض يبحث كيف يحقق مصالحه مستغلاً الموقف. . لا لن نكون، ولن أسمح أن نكون ذلك العود الذي يشعل النار. . هل سوف تستسلم يا مجدي! بلى، سوف أستمر، أحاول، أعافر إلى آخر نفس في، ولكن بالطرق السلمية. .
ولكن أي طرق سلمية سوف تنجح! أراك تضحك على نفسك. . على الأقل لن أفعل ما هو خطأ. .
ثم عاد من الداخل الأب الموقر إلى حيث كنت أجلس على تلة الجبل وأنظر إلى الوادي وقال:
أعلم أن هذه الأمور في تلك المجتمعات لا تمر بسلام، ولكن قد تكون العقول

تفتحت أكثر من ذي قبل، ولكن أنا قاطن تلك الجبال المنعزلة بعيداً، ربما حكمي متجمد فأدعوك بأن تشارك هذا الأمر مع أحد الآباء الذين لهم احتكاك كثير ومباشر بالأمر من البلدة عندكم، ربما يفيد أكثر مني!

قُلت له على الفور: القس مارتن، وهو يعلم بأمرنا، ولكن منذ زمن لم أحدثه في الأمر. .

إذن فلنناقش معه الموضوع قبل اتخاذ أي مجازفة تكون عاقبتها كبيرة يا بني. .

ودعته وذهبت لمقابلة القس مارتن، وعندما وصلت له استقبلني بصدر رحب. .

-منذ زمن لم أرك يا مجدي، وحشتني أسئلتك وحكايتك. وابتسم ابتسامه صافية وقورة. .

-وأنا اشتاقت للجلوس معك ولكلامك حضرة القس. .

-مالك فيك حاجة متغيرة! ملامحك فيها هم ليه؟

-أخبرته بما أتيت لأجله وعن صراعاتي العنيفة في هذه الأيام. . . وعن ما أنا مزمع القيام به. .

الفتنة ورحيل ميريت

-يا بني أنت تعلم جيداً ما حدث منذ فترة ليست ببعيدة في موضوع أحمد وميريت. . ألم تر كيف كانت النهاية. .

كان أحمد يحب ميريت بنت عم سمعان. . وهي تبادله نفس الشعور.

عم سمعان رجل وقور من الناس المتدينين المؤمنين جداً بالرب يسوع، مواظب على طقوس الكنيسة. . . وميريت لم تستطيع أن تمنع نفسها من أن تحبه برغم تمسكها العنيف بالدين، لم تستطع أن تقاوم ذلك السيل من العواطف الجياشة المفعمة بالحياة أمام أحمد ذلك الشاب الوسيم المتعلم والمثقف صاحب الفكر المستنير، فكان أحمد مطلع وقد قرأ الكثير من الكتب الثقافية والعلمية والتاريخية والدينية، وقد اطلع على الكثير من الكتب المسيحية. .

وكانوا اتفقوا على الكثير من الأمور، مثل أن تبقى على معتقدها ميريت، وهو على معتقده. . . والأبناء سوف يكون الطفل الأول تابع لـ أبيه أحمد، والثاني لـ ميريت وهكذا، وعندما يكبرون ليكن لهم ما يشاءون. . .

اتفقوا على الكثير، ولكن لم يتفقوا كيف سوف يتم الأمر، إنها تلك الخطوة الصعبة، بل هي كل الأمور خاصةً في مجتمع كهذا. . مجتمع متعصب أحادي الرؤية. . . ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. . .

اقترب أحمد لـ غرفة أبوه في تردد شديد، ولكن غلبه تردده وعاد إلى غرفته من جديد، فكيف يقول لـ أبيه وماذا يقول؟ دخل غرفته غرفة صراع الأفكار المتداخلة بعنف في عقله. . لم يقطع حبل تلك الأفكار إلا صوت طرق

الباب. . . قام ليفتح وإذ أبوه الشيخ عبد الحميد
-تفضل يا أبي. .
ووقف في وقار شديد، إنها عادات أهل الصعيد الذين تربوا على الأصول والأدب واحترام الكبير. . على عكس غيرهم الذين ينحرفون في كل اتجاه تحت ما يسمى حرية، أي حرية ترى يقصدون أم أنهم لا يدركون الفرق بين الأدب، الاحترام، المسؤولية والحرية؟
-شكراً يا ولدي هأخذ من وقتك دقيقتين. . إنت كبرت وخلصت تعليمك والحمد الله مش فاضل غير تكمل نص دينك وتفرحنا أنا وأمك. .
أردت أن أحدثه فيما كنت مزمع، ولكن في عقلي ذلك التردد، سرحت في أفكاري حتى قطع عليا ذلك السيل من الأفكار. . قائلاً:
-بص يا ولدي من غير ما تسرح وتفكر كتير احنا رتبنا كل شيء، وفي صفية بنت خالتك بنت جميلة وذكية ومؤدبة ومننا وفينا، إيه رأيك أمك تكلم خالتك؟
حلت لحظة صمت عليّ كـ الصمت الأبدي. .
-لكن يا أبي أنا بحب واحدة تانية.
ضحك ضحكته المعهودة الصافية وقال مازحاً:
-ومن هي سعيدة الحظة اللي واخدة تفكيرك كدا وأنا من بكرة أجيبهالك. .
-ميريت بنت عم سمعان. . .
صمت وتغيرت ملامحه وقال. .
-يا بني إنت عارف إنها مسيحية وعندنا عادات وتقاليد وأهلها مش ها يوافقوا؟ بس أقولك المهم هي موافقة. .

بفرح واضح في ملامح عيناي قُلت:
-طبعاً يابا
-خلاص طالما هي موافقة ماتعولش هم أجيبهالك انشالله بالعافية. . .
وقعت على أذني هذه الكلمة الأخيرة كـ ضربة رصاصة. . فأنا لا أرغب في الأمر هكذا، أني أحبها وهي تحبني، لم علينا أن نخوض في كل هذا. . . لم علينا أن نستخدم العنف. . . الحب إنما هو سلام ومودة. . فكيف نحقق الحب بالعنف. . فهل يجتمعان؟
وفي اليوم التالي ذهب لـ يقابل أبو ميريت. .
لكن كان الرد المعروف أنه لا يليق وديننا لا يسمح بهذا. . لكن أبويا لم يتقبل فكرة الرفض وقال مهدداً. . .
-الواد بيحب البنت والبنت بتحبه إحنا خبطنا على الباب ماتجبرناش نعمل حاجة ماترضكش. .
والسلامة عليكم. .
كان رد عم سمعان أكثر حدة مما توقعت. . لست أدري لم رغم أنه معروف بالحكمة والرزانة. . . ومعروفين المسيحين بالوداعة. . هل كل هذا وهم، وأنهم كـ غيرهم، أو ربما لأن أسلوب أبي كان عنيفاً. . فقال:
-معنديش بنات للزواج واللي معاك اعمله. .
وقع ما كنت أبداً أرغبه. . ولو كنت أعلم به من البداية لكنت أوقفت نزيف ذلك المشاعر التي بيننا، كنت قطعت حبل الوصل بيننا من اللحظة الأولى عبر عيوننا والابتسامات التي ملأت أرواحنا قبل أن أعلم ما هي ديانتها. . . حينها لم أفكر ولا كنت أعلم، فقط أحببتها وتحرك كيانها نحوي في صمت حتى يوم اعترافي لها. . . حيث فاجئتني كونها مسيحية. . . .

بعدها ابتعدت عني لفتره عندما أخبرتها باسمي. . . ولكن عادت لما كان من صدق الانجذاب الحاصل بيننا. . . نعم أحببتها وأحببتني دون أن نعرف ديناً لبعضنا. . . لم أسأل عنها يوم أحببتها. . . إنه القدر من جمع خيوط وتناسق أروحنا. . . فلم نحشر الدين في كل شيء وهل الدين يحرم الحب! هل هذه تعاليم الله؟ أم أنها قيود نحن من وضعناها أمام أنفسنا كيما لا نعيش ونستمتع ونكون سعداءً بالحياة كما أراد لنا الله. . .

دخل أبي مع جمع من أهل القرية وطرح ميريت أمامي وقال:

-أهي قدامك افعل ما تشاء بها. .

قمت في حالة ذهول وعقلي غير مستوعب لما يحدث. . وصحت في الكل وكانت أول مرة يعلو صوتي أمام أبي. .

-مين قالك تعمل كدا، ومين قالك عاوز الأمور بالشكل ده!

وانهرت بالبكاء ونزلت على الأرض حيث كانت ميريت مطروحة على أرضية البيت وجهها للأرض كـ عبد منكسر أمام أسياده، شعرها متبهدل وملابسها متسخة كأنها خارجة من معركة عنيفة. . . ميريت التي طالما كانت ملابسها نظيفة وشعرها ناعم كـ الحرير مفرود على أكتافها كـ حواء يغطي شعرها أناقة وجمال جسدها الرقيق ويبرز أنوثتها المفعمة بالحياة. . كـ أميرة تجلس على كرسي قصر المملكة. . .

ضممت رأسها بين يدي وقُلت لها: لا تخافي يا حبيبتي. . أنا آسف لما حدث. . لم أكن أنا. . ولا كنت أدري. . . أجهشت بالبكاء بعنف دون أن تنبس ببنت كلمة. . لم يكن سواء الدموع والبكاء المكتوم. . لكن راحت تدس نفسها بين يداي في صدري كمن يريد أن يختفي من الخزي والانكسار الذي سببه أبي وأقاربي وبعض من أهل القرية. . . .

قال أبي: ها تتزوجها مش ها تتزوجها لن تخرج من دارنا. . . لما نشوف سمعان ده كيف يعصاني النصراني ال. . . ده

ومشى أبي ومن معه واحتضنتها جامد فأنا السبب لما يحدث كله، أردتأان أخفيها وأختفي معها من هذا الوجود إلى الأبد . وقُلت: ميريت حبيبتي، ما تخفيش مش ها سيبك ولا ها اسمح لحد إنه يتسبب بالإزاء ليكِ أبداً. .

الجو هيهدا وأنا هاروحك بنفسي. .

تصعد الأمر بعد أن تجمهر عدد من مسيحيين القرية للمطالبة بـ ابنتهم حتى وصل الأمر لـ سلطات الكنيسة الكبيرة، ومنها وصل لـ الأمن. . . تصاعدت وتيرة الأحداث بشكل غير معقول في خلال ساعات. . . وحدث بعض المناوشات من الطرفين. . .

حتى المساء أخذت ميريت من الباب الخلفي حتى أرجعها إلى أهلها وأعتذر من عم سمعان، وبالفعل وصلت هناك وعند وصولي وجدت إطلاق أعيرة نارية بكثافة. . أبي كان اعتقد أن ميريت هربت، تدخل الأمن لفض الاشتباك وأنا تسللت عائداً للمنزل. .

وبعدها بيوم اختفت ميريت تماماً. . لا أدري أين ذهبت، سألت عنها كثيراً ولا أحد قدم أجوبة كافية واضحة، فهل أخذتها السلطات الدينية إلى الدير _وهو الغالب_ أم سفروها خارج البلاد ربما. . وبعد مرور أسبوعين ومنعا لـ الاحتكاك قفل بيت عم سمعان ورحل تماماً، ولم أعلم أيضاً أين ذهب. . . لم أكن أتمنى أن تكون هذه النهاية؛ رحلت دون أن أودعها، أن أقول لها كم أحبها. . وإني أشتاقها وسوف أشتاقها. . أقول لها إنني هزمت، لطاما كانت تخشى هذا الأمر وأنا كنت أطمئنها بأننا سوف ننتصر، ولكن ها أنا أقف اليوم وحيداً رافعاً علامة الهزيمة والانكسار. . .

انطوى أحمد بعد هذا الحادث كثيراً بعيداً عن الجميع حتى عن أهله ووالده. . حاول والده أن يخرجه من حالته النفيسة التي ساءت وكل يوم تسوء، وذهب عند أطباء نفسيين ولم يفلح الأمر، حتى جاء أحد الأيام ورحل أحمد من هذا المجتمع المنغلق، بعيداً عن مجتمع العادات والتقاليد الخانقة، بعيداً عن ازدواجية الدين والأخلاق. . . مجتمع يدعي الفضيلة في العلن ويفعل الرذيلة في الخفاء. . مجتمع يهزه ملابس امرأة مكشوف بعضاً من أجزاء جسمها، ولكن لا يهتز لـ إباحة الدماء والقتل. . . رحل ولا أحد يعلم عنه شيء. . . وأباه بدوره ازداد في التعصب والتحريض على المسيحين ظناً منه أنهم السبب في ضياع ابنه. . فيختلق المشاكل لكي ينتقم من هؤلاء النصارى بحسب معتقده. .

لكن يا حضرة القس أنت تعلم جيداً كيف بدأت علاقتنا ومنذ متى ونحن نحب بعضنا. .

إذن دعنا نصلي ونضع الأمر بين يدي القدير وهو من سيرشدنا. .

مجدي وزينب

عندما أحببتها كنت طفل لا يملك من العمر إلا إثنى عشر عاماً، وكانت تصغرني بأربع سنوات. . قد يبدو هذا جنون، عن أي حب في هذه المرحلة نتحدث. . وبالرغم من عدم أهليتنا إلا أنني اختبرت في هذا الكثير من المعنى العميق بعكس ما يروج له على الأقل من واقع خبرتي. . وسوف أخبركم فيما بعد بالكثير بخصوص هذا الأمر، ولكن دعوني أصف لكم القليل، فالحب في هذا السن يحمل من البراءة والصدق والإخلاص أكثر منه في أي مرحلة. . فلا يوجد كذب أو تلاعب أو مصلحة ما، ولا يحده جنس أو لون أو دين. . لم نكن قد تشوهنا بقذارة ذلك العالم. . .

فقط حدث انجذاب عندما رأيتها لأول مرة. . هل هذا ما يسمونه الحب من أول نظرة! لست أدري. . . كل ما أدريه عندما أراها أو أقف أمامها. . . كل تفاصيلي تتلخبط وتتداخل وترتبك، ولا أعرف أن أتمالك نفسي وتغمرني سعادة عارمة أقرب إلى الشعور باللذة الخفيفة في كل أنحاء جسدي ونشوة في تفاصيل روحي . . .

كانت ترتدي فستاناً قصيراً نوعاً ما مزجرفاً بـ الورود باللون الأحمر الفاتح على خلفية بيضاء، وترتدي من تحته بنطال ضيق، كانت وهي طفلة تملك جسداً نحيفاً نوعاً ما وعيون زرقاء فاتحة اللون. . . وشعر أشقر ممووج. . منساب على أكتافها. . كانت أنيقة في كل تفاصيلها. . حتى أنني لم أستطع مقاومة انجذاب سحرها وابتسامتها، لطالما وقفنا أمام بعضنا البعض متى جمعتنا الصدفة أمام بوابة المدرسة، ومرات عيوننا تتحدث في صمت، وربما

رمقتي بعينها اليسرى. . حتى أفقدتني أعصابي وانتاب جسدي قشعريرة، وازداد تدفق الدم في شراييني من سرعة دقات القلب. . هذا عندما كانت تنظر لي من أمام باب منزلهم الذي بجوار منزلنا. . فهي كانت تقطن في الشارع الموازي لامتداد شارعنا، ولكن يملكون من الخلف باباً يطل مباشرة على باب منزلنا، ولكن كانوا لا يستخدمونه إلا للضرورة. . . منزل ريفي كما هو متعارف على تلك المنازل. . منزل يسع ما يقرب من الربع فدان، أي حوالي الألف متر تقريباً، مبنى من جهة الشارع الموازي لـ امتداد شارعنا طابقين، كل طابق مكون من ست غرف ووسطهم صالة كبيرة زي دوار، تفتح به كل الغرف، ومن داخل الصالة الحمام ومطبخ ومنقوشة واجهة المنزل برسومات دينية وبعض الآيات القرآنية التي كانت ترسم بعد الرجوع من الحج، وتم وضع لوحة من الرخام محفور عليها عبارة -منزل الحاج عبد الحميد عبد السلام- ويلي هذا المبنى مساحة لا بأس بها لتخزين الغلال وأكل للحيونات. . وبعدهم مزرعة كبيرة لتربية الأغنام وبعض الحيونات الاليفة المنزلية، وبعدهم في القرب من جهة الشارع الذي نسكن فيه أي المطل على منزلنا. . . يوجد جنينة مليئة بالأشجار وبعض الخضروات مزروعة تحت الشجر. . وعلى نهايتها يوجد قرب الباب المواجه لمنزلنا غرفة بحمام صغير كانت معمولة للحارس منذ فترة قبل الاستغناء عنه، حيث المباني ازدادت وكثرة الناس ولم يعد من خطر كـ أيام زمان حيث كان لا يوجد مباني خلف منزلهم، إنما كانت أرض فضاء مزروعة قبل أن تتحول إلى كردون مباني. . . . .

كانت تأتي لتقف أمامي. . . وترمقني بنظراتها الساحرة الجذابة البريئة أيضاً. . كيف تملك كل هذا الجمال والسحر. . هل حقاً هي بشر. . أم

أنها ملاك هبط من السماء. . . حورية من حوريات الجنة أو عروس البحر التي طالما قصوا علينا حكاياتها. . أم أنها أميرة متوجة على مملكة الأميرات الأكثر جمالاً... لا أدري ما هي حقاً. . .

كانت تأتي مع أمها تزورنا في المناسبات المختلفة. . خاصة بعد أن أظهرت أمي الكثير من الود بعد حدث رحيل أحمد بعد أن جن عقله من بعد تدهور الأوضاع، من بعد كل ما حدث ورحيل ميريت، ومن بعدها أهلها.

كانت تجلس طفلة بجوار أمها وأنا أترقبهم خلسة من بعيد في براءة طفولتنا. .

ومرت الأيام والشهور والسنون وكبر معنا الحنين كل واحد إلى الآخر. . حنين كمن في غربة ويشتاق لأوطانه. .

كبرنا وكبر معنا الحلم. . حلم تغيير العقول. . العادات والتقاليد. . الانتصار على النفاق والكذب والازدواجية. . . أن نعيش أنفسنا. . كبر الحلم ونضج واقترب من التحقق، ولكن هل سيحدث كل ما تمنيناه؟ هل سننتصر على أنفسنا وتتحد عقولنا وأرواحنا وتكتمل باتحاد أجسادنا التي طالما اشتاقوا بعضهم لبعض؟ لطالما رغبوا وغالبهم العطش والحنين. . . لست أدري. . .

ولكن سوف نعافر، سوف نمر في درب الموت إن تطلب الأمر ذلك كيما نرسم طريق الأجيال. . . لا أرغب أن يعانوا كما عانينا نحن. . ولربما في مغامرة رحلتي نحو المجهول أدركت ذلك السر، رحيل أبي، السر الذي طالما صارع عقلي. . أبي قال لن تدرك ذلك السر الآن، لكن سوف تدركه فيما بعد عندما تنضج محبتك وصدقك ويصطدم بأرض النفاق. . وها أنا أقترب من الاصطدام العنيف المحتوم. . فهل ستتحقق النبوءة؟ ليست أدري! ولكني مستمر. . . فقيمة الحياة لا تتحقق بالوصول إلى الأهداف. . بل بالاستمرار.

بكيفية ونوعية طريق الوصول، فكم من الأشخاص الذين حققوا نجاحات بالوصول، ولكن فارغاً من المعنى والمضمون. . وكم من الأشخاص الذين رحلوا قبل الأوان، ولكن تركوا خلفهم أشخاصاً تؤمن بالرحلة وتدافع على قضية تستحق النضال. . فهم قد وضعوا البذار، والعمل ينموا ويستمر. .
اعتادت أن تأتي بعد أن تتأكد من خلو منزلنا خاصة في فترة الصباح بعد رحيل الكل عن المنزل، كلا إلى واجهتها وإن لم تتح الفرصة تفتح الباب الخلفي لمنزلهم وتدعوني خلسةً إلى تلك الغرفة التي كان يقطنهاالحارس ...التي أوضحتها فيما قبل
كان منزلنا صغيراً مقارنة بمنزل عم عبد الحميد. . كان حوالي ٣٥٠متر مطل على واجهة الشارع بغرفتين، وتتوسطهما صالة، مكون من ثلاثة طوابق، الأول يقطنه أمي وأبي، والثاني أنا وأختي، أما الطابق الثالث فـ خالي، وعندما كانت تأتي زينب عندنا نقضي الوقت في هذا الطابق. . . كان يجمعنا تلك المحبة المقدسة الممزوجة بـ خمر العشق. .
وفي ذات صباح ألقت بحجر على شباك غرفتي الذي في الطابق الثاني، استيقظت وخرجت أنظر إليها، فقد اعتدادنا على مثل هذه الإشارات، وجدتها واقفة من داخل بابهم الخلفي في نص فتحة المواجه لنا. . . كمن يتسلل للسرقة. . تسألت عبر الإيماءات والإشارات. .
-هل ذهبوا. .
-لا، الساعة لم تتجاوز الثامنة. . .
وابتسمت مع إشارة أن تدخل وتغلق بابهم مازحاً يا مجنونة. .
ابتسمت. . ولمعت عيناها كوحش مفترس أمامه فريسته على بعد خطوات. عيون اللهفة والاشتياق، الرغبة الجامحة في روحها لطالما قالتها إنها تشتاقني.

كمن وجد المياه بعد ظمأ أيام وربما شهور أو سنين. . لن أستطيع البعد عن حضنك. . حضنك وطن في زمن الغربة، حضنك يروي عطش أرض جسدي المتشققة، لطالما كنت فيه واشتقت له. . أنت إدمان أسكر روحي وانتشا به جسدي. . . وغيب نفسي، لطالما تمنيت الغيب فيه للأبد. .

انتظرت ما يقترب من النصف ساعة وكررت ذات الإشارة. . ما هذه المجنونة التي أحببتها واستوطنت تفاصيل وجودي حتى صارت وجودي. . . أحببت جراءة روحها وعنفوان رغبتها، خفة ظلها، جنون عقلها الممزوج بالتعقل، دلالها ودلعها، عن ماذا أصف؟ عن ملاك تسلل خلسة إلى أرضي في ثوب أنثى! وعن أي أنثى! أنثى اكتملت فيها أنوثة كل نساء الأرض. . . عن أي حب وصدق. . عن روح مغامرة عاشقة هائمة. . . في زمن يجرم الحب والجمال والعاطفة ويضع العشق تحت ذنب الخطئة. . . عن أي خطئة يتحدثون. . . عن سر وروعة وجمال الوجود. . عن سر انبثاق الحياة من كأس نبيذ الروح. . . مجتمع يقتل ويسرق ويزني باسم الدين، باسم المقدس يدنس المقدس. . . مجتمع جرم القبلة ويجعل من ارتشاف النبيذ جريمة لا تغتفر. . وما هو ارتشاف النبيذ إلا قبلات حياة في قلب اليأس، في قلب الحزن والوجع. . . إنها امتزاج المقدسات في قدس أقداس الحياة. . . مجتمع شوه الحقائق. . وبدل المعايير. . . .

أجبتها ضاحكاً. .

- لسه يا مجنونة نص ساعة كمان يجهزوا

-حاضر لما نشوف. . .

بعد قليل من الدقائق أعادت إشارتها بجنونها المحبب إلى قلبي. . نزلت فتحت الباب نظرت يمينا وشمالا. . قبل أن أقول لها. . . كانت دخلت قبلي. .

-إنتي مجنونة!
-نظرت قبلك. . إنت فاكر إني واقفة نائمة من الصبح. . .
لم تمهلني الصعود إلى الدور العلوي. . حتى ارتمت بين يدي وأهطلتني سيل من قبلات الحياة في فمي. . ضممتها بعنف نحو صدري. . همست في أذنيها: اشتاقت لك يا مجنونة. . أجابت: وأنا اشتاقت روحي إليك وجسدي أيضاً. . متى تسمح وتحررني من هذا العذاب، أريد أن أمنحك ما هو أكثر من ذلك. . وتركت نفسها كـ قطعة ثلج ذابت بين يداي، في جنون تحولت إلى جمرة نار مشتعلة، تقبل كل جزء في جسدي بشراهة. . حتى وصلت الرغبة في إلى قمة عنفوانها، وإن لم أوقفها حالاً لن أستطيع المقاومة بعد. . استجمعت كل ما تبقى في من عقل ووعود قطعتها وأوقفت هوج جنونها وجموح رغبتها. .
-توقفي يا زينب ليس بعد يا حبيبتي. . أمامنا طريقا صعب، إن لم يكن لأجلنا، ربما لأجل كل المحبين والعاشقين. . لأجل كسر شوكة العادات المدمرة، وربما شوكة وسطوة الدين أيضاً. . دعينا أن نسير في درب الصواب المؤلم. . توقفت عن هذيانها وجنونها. . ونظرت نظرة حادة، نظرت تحدي، إنما نابعة من بئر اليأس العميق، الخوف من مما ربما يأتي، بل مما هو محتوم. وقالت:
-متى سينتهي هذا وتخبر أهلي وكل الناس. . إلى متى نخفي حبنا في الظلام. أم أنت أعجبتك اللعبة. .
هي قالت جملتها الأخيرة لا لأنها تعتقد أنني هكذا، ولكنها أرادت أن تستفزني للقيام بشيء. . فهي تعلم أكثر مني بصعوبة الموقف، فـ مجتمع يجرم الحب، كيف يقبله بالأكثر مع اختلاف الدين. . وهو لا يعرف قبول

الاختلاف. . إنما نمزق أجسادنا باسم المقدسات. . فما الدين إلا وهم نقتل به الحياة طمعاً في الآخرة. . . .

-قريباً حبيبتي، لم تريدين استعجال القدر، حتماً سنواجه المصير معاً، فأين المفر. .

- لأني سئمت الانتظار وأرهقت من ترقب ماذا سوف يحدث، واقتربت نفسي من الاحتراق شوقاً. . ألا تشعر! ضع أذنيك لتسمع دقات القلب لتخبرك، اقترب أكثر تلمس جسدي تشعر بتشققاته عطشاً. . احتضنني تدرك عطش ولهفة الروح للذوبان الأبدي بين خلاية وجودك. . .

قالت هذا والدموع هطلت كـ سيل من الأمطار العنيفة. . ضممت رأسها لصدري حتى غاصت غارقة في دموعها عليه، حتى امتلأ صدري من تلك الدموع، دموع اشتياق ووجع، وأخفت رأساها عميقاً في كمن خائف من شيء ما ووجد الأمان، كـ غريب عائد لحضن أمه بعد غربة زمان. . ضغط عليها بشدة. . . وأغمضت عيوني حتى تلاشى من حولنا كل شيء، حوائط الغرفة، والمنزل، والقرية، والكون بكامله، حتى أجسادنا تلاشت ولم يبق إلا ذلك الصوت النابع من الأعماق المشتاق ذلك الأمان وتلك الطمأنينة في وطن لا يحده أسوار ولا قيود. . . قُلت جملة واحدة. .

-قريباً أميرتي سوف تبدأ المعركة

أومأت برأسها بانها تتفهم. . من ثم قبلت جبينها. . ومن ثم وضعت يديها حول عنقي ونظرت في عيني مباشرة وقالت:

-إن لم تقرر وتفعل شيء. . سوف أحسم الأمر بنفسي. . لن أجعل القدر يكتب نهايتنا. . بل سوف أخطها بيدي، حتى إن كلفني ذلك حياتي. .

-هيا أميرتي قبل أن يأتوا، دعيني أنظر أولا الطريق. . لا يوجد أحد. .

ذهبت وقبل أن تخرج من باب المنزل عادت مسرعة، ارتمت في أحضاني ولو كأنها لحظة وداع وسوف لا نلتقي مرة أخرى. . . ربما تتوقع ما نخشاه دائماً. ورحلت إلى منزلهم بسلام دون أن يراها أحد. . .

رحلت وتركتني أواجه المصير المحتوم في عقلي. . . أفكار كثيرة متداخلة، صراع عنيف في عقلي، كيف ومن أين أبدأ الطريق؟ حتى قررت أخذ مشورة القس مارتن وماذا يقول له الرب في أمرنا، رتبت أموري على أن أقابله في الغد. . وهذا ما تم

طرقت بابه. . أجاب من الداخل بصوته

-من الطارق. .

-أنا مجدي

فتح الباب وقال: تفضل يا مجدي اجلس. .

نظر في عيني وقال: مازل في عينيك الحيرة والتوهان. .

أعلم ما أنت مقترب على القيام به. . ولطالما قُلت لك لا تفعل هذا. . فعواقبه وخيمة، ولكن اليوم وقد آن الأوان لفعل شيء حيال ذلك الواقع المؤلم والمجتمع المنافق. . .

والله لا يخذل عباده لطالما كان الصدق مبتغاهم. . . . ولم أر أكثر من الأمور تستحق النضال مثل هذا الموقف الذي أنت بصدده. . فما أنت مزمع على فعله، افعله وكن شاهداً أو شهيداً للحب. . . انتصر للخير والحرية وبركة السماوات تحل عليك. . . .

استغربت كثيراً لـ كلامه، هذه المرة مخالفاً كل المرات السابقة. . . هل يأس أمام إصرارنا، أم أنه كان ينتظر عندما يحين الوقت؟ أم أنه اقتنع بهذه القضية. . لا أدري ولكن قُلت له: هل تذهب معي لنحدث أبيها؟ أجابني:

ولو أن هذا جنون ويزيد من حدة الاحتقان، ولكن سوف أصلي وأقول لك، دعني الآن بين يدي القدير وضع الأمر برمته له أيضاً. . وفي اليوم الثاني ذهبت لكي أراى ماذا يقول. . وجدته في استعداد للذاهب، وجاهز في انتظاري. . يا أللة ما هذا، هل سوف تسير الأمور كما نتمنى أم سوف نواجه ذات المصير الذي واجهه أحمد وميريت. .

ذهبنا إلى منزل عبد الحميد، فتح الباب ورحب بنا بحرارة، هو لا يعلم لم الزيارة. . . جلسنا وبعد أن شربنا الشاي. . تحدث أبتي وقال: أعلم أن ما أنا مزمع أن أتحدث معك بشأنه قد يكون صعب، ولكن أتمنى ألا يثير غضبك. . انت تعرف أننا عشرة سنين. . .

-تحدث أبانا الغالي

-إنت عارف إن الحب ده محدش بيختاره. .

ومجدي يرغب في الجواز من بنتك زينب. . .

وقع هذا الكلام وتغيرت ملامحه، وتاه بنظره عنا بعيداً، كأنما تذكر حادث ابنه الأليم. . .

رفع نظره وقال: لولا إنك عشرة ورجل دين كنت اتصرفت معاك تصرف تاني، وإنت يا معلم مجدي عاوز تعيد تاريخ أبوك ولا إيه؟ لم أفهم معنى جملته، ولكن أدركت أنه وراء رحيل أبي شيء من هذا القبيل، ولكن لم أدرك تفاصيل الأمر. . . تخرجوا من هنا وماسمعش عن الموضوع ده تاني. . لو حد أخد خبر من الجماعة مش هايحصل ليكم طيب، وفتح الباب في عنف وقال: تفضلوا، أنتوا لم تاتوا هنا من الأساس. .

خرجنا حاملين خيبة الأمل، وأنا خارج من الباب لمحت عيونها وتملأها الحزن والحيرة، وكأنما تقول -خذني معاك لا تتركني هنا أواجه هذا المصير وحدي-

مشينا في صمت ولو كأن كل منا لا يعرف ماذا يقول. . وقطعت هذا الصمت أنا بسؤالي وقُلت: أبتي، لماذا هذه المرة وافقت على الفكرة وقررت المجيء معي؟

أجابني: لم آتي من نفسي، ولكن الله هو من أخبرني أنه حان الوقت، وسمعته وكان الصوت واضحاً. . .

إن كان هذا مشيئة الله فلماذا حدث الموقف هذا؟

أجابني: له حكمة يا ولدي، له حكمة. . . نصلي ليرشدنا على ماذا نفعل فيما هو قادم وأن يمنع كل ما هو قد يسبب بلبلة وسطنا. . ولنرى إن كنا سوف نتحدث في الأمر مرة أخرى

- مرة أخرى!

- ولم لا يا بني، دع الأمر للقدير ننتظر الإشارة القادمة. .

وبعد مرور كام يوم لم أرى فيهم زينب ولا أدري ما أصابها. . هل تعرضت لـ مضايقات، وربما أكثر لا أدري! ولا باستطاعتي فعل شيء، الآن بات الأمر أصعب. . .

ها قد ظهرت كـ عادتها صباحاً، ألقت بـ حجر صغير في شباك غرفتي أيقظني ذهبت مسرعاً نحوها وفتحت الشباك وإذا بها، ولكن لم تكن نظراتها كـ السابقة؛ عيناها انطفئت ولكنها تنظر كـ الذئب الذي يترقب فريسته بعدما أنهكه التعب من مطاردته، وبعض الدموع تساقطت دون كلام. . . أدركت ما في روحها من رغبة واشتياق وحنين وخوف ويأس دفين. . أدركت أنها ترغب في الكلام، وقفنا صامتين وعيوننا تتكفل بالأمر ما يقرب من النصف ساعة. . ثم أشارت لي بالنزول لنتقابل في غرفة الحارس، وتسللت دون أن

يشعر من في البيت. . وقطعت مسافة الشارع وفي ثواني معدودة كنت بين يديها وهي بين يديا تقبلني بجنون كأم كانت في انتظار ابنها من غربة، أو حبيبة في لحظة وداع حبيبها التي ربما لا تلتقيه مرة أخرى. .

غويات زينب

وكانت زينب قدمت عرضها لأكثر من مرة، ألا وهو الهرب بحيث نضع الجميع أمام الأمر الواقع. .

-لا يا زينب، أنا أحبك، ولكن لا أريد أن أفعل ما هو خطأ، وربما يكلفنا ويكلف أهل البلدة الكثير من الدماء. .

-يا حبيبي، منذ عامين وأنت تقول نفس الكلام وماذا فعلت ما الجديد؟ غير أن أبي سوف يمنعني من الخروج مطلقاً. . لن أستطيع أن أراك مرة أخرى إن لم نتصرف ونتخذ قراراً. . . أنا مش بقولك نعيش في الحرام، لكن نهرب ونتزوج. .

-نتزوج على أي دين وبأي سنة. . وأمام أي رب. . .

-يا حبيبي قُلت لك كما تحب، أنا من يدك اليمين لـ يدك الشمال. .

لم أكن أتكلم بحسب ما راود عقلها، أنه هل سوف نتزوج بديني أم بدينها. . ولكني كنت أتسائل في نفسي بصوت مسموع. . . أي زواج هو المقدس، وأاي طقس يكون مقدساً. . . الإسلام، المسيحي، اليهودي، البوذي. . . إلخ. . وهل هذه الطقوس هي من تقدس الزواج أم الحب! فما أقدس من الحب النقي الخالص، الصافي، الشفاف، الأبيض كـ الثلج. . وماذا تفيد بعض الكلمات والإشارات الطقسية الحمقاء. . فهل يوجد حب بين اثنين لا يرغبان في بعض! إننا مجتمع ازدواجي، وغير منطقي. . إن أحببنا بعض ومارسنا الحب دون كلمات الصلوات والطقوس صرنا نزني. . فكم من الأزواج الذين لا يرغبون بعضهم البعض ومحبوسين تحت سقف واحد

إجباري في سجن تلك الكلمات والطقوس العقيمة، ويمثلون أمام المجتمع السعادة خوفاً من أن يشمت بهم الناس. . إنها أفكار وحروب في عقلي لا تتركني، حتى في منامي تأتي لي كـ كابوس يزعج روحي. .

-مالك حبيبي! فيما تفكر ومنشغل عني بعيدا! لا تحزن قلبك أنا سوف أجد لك الحل. . . إنه هنا ومعك. . .

اقتربت بدلال كمن تحولت إلى حورية ولكن ممتزجة بحية لعوبة، فما كانت المرأة من البداية إلا حواء الجميلة التي استطاعت أن تغري آدم وتحرك الرغبة لتسقطه في بحور الشهوات المقدسة. . . -اهدأ حبيبي- اقترب أكثر وأنا جالس أمامها غير مبالٍ وغير متوقع ما تعزم على فعله. . . اقتربت كثيراً حتى تلاصقت أرجلنا وأجسادنا بالكامل ووضعت إصبع يديها بين شفاهي

-هسس لا تتكلم يا حبيبي دعني أنهي لك هذا الأمر. .

واقتربت كثيراً جداً حتى امتزج دفء أنفاسها بأنفاسي ولامست شفاهها على شفاهي بنعومة خيط حرير. . . تسمرت وارتجف كجسدي، وأنا ارغب في التمنع ولكن يستحلي جسدي تلك اللذة الممنوعة التي تسري في كل جسدي مع كل لمسة من شفتيها كل قبلة لفمي، ووضعت يدها حول رقبتي وراحت تفرحك بـ دلال وحب وإثارة مجنونة كجنون هيجان روحها، وتنزل إلى صدري نزولاً. .

أوقفتها فجأة حين أدركت أنها تعتزم فعل الأمر. . حيث أسقطت أمنا حواء آدم في بحور لا رجع منها. . .

ماذا تفعلين يا مجنونة أعلم ما تنوين، أحبك عزيزتي ولكن ليس بهذه الطريقة. .

كانت تريد أن تضع الكل أمام الأمر الواقع. . حيث اللا اختيار سوى الزواج أو الهرب. . . . هذا ما كان في تفكيرها. .
لكني أعتقد لن يكون الأمر غير موت ودمار ودماً يسيل في كل الطرقات. . نعم النساء يتصرفون عاطفياً غير مبالين بالمخاطر لطالما أحببن، بعكس الرجال الذين يحكمون العقل أكثر. .
قبلتها على جبينها وقُلت: سوف أذهب وغداً سيكون هناك حل إن شاء لله. .دعيني أذهب حتى لا أتأخر ويحدث ما لا يحمد عقباه. . . . تمسكت بعنقي كمن لا يرغب أن يفارقني أبداً. . انهمرت في الدموع وقالت: لا تتركني هنا وحيدة، خذني معك أي مكان، ليس لي حياة دونك، فدونك تصارعني الكوابيس باليل، والنهار يمر كـ السنة. .
وأنا أحبك كثيراً زينب. . احتضنتها ووضعت رأسها على صدري واحتويت وجودها، وقلت: لا تخافي، سوف يدبر الأمر. . قالت: أخشى أن يحدث ما لا نتمناه. . كيف لا أراك مرة أخرى؟!
قالت جملتها هذه وعصف بعقلي الصراع. . انتابتني موجه عنيفة من الأفكار وضعتني بين مفترق الطرق، ولو كأن تعمد القدر أن يضعني بين حجري الرحى، فماذا سوف يكون المصير؟ وهل لنا الاختيار نملك حق القرار، أو حتى مجرد الاعتراض، أم سيحسم المشوار! لكن نحن لا نؤمن بالقدر، إذن فماذا نؤمن؟ نؤمن بحرية الإرادة، بإردة الله؛ كيف ونحن لا نملك الحرية في الكثير من الأمور؟ فما الفرق بين هذا وذاك إلا تلاعب في الألفاظ لنهرب من مواجهة الحقيقة؛ فعندما يحدث ما هو حتمي. . ولا قدرة لنا على تغيره نجمل القدر لنقول هذا سماح من الله لأجل حكمة ما لا ندركها، فكيف لعقولنا المحدودة أن تدرك حكمة الله الغير محدودة. . . فإن كنا

لا نستطيع إدارك الحقائق بعقولنا، فلم تنتظرون منا قبولها؟ ما هذا الذي أفكر فيه! إنه الصراع الذي يبدأ وينتهي هنا على أرض معركة العقل، فإن تسرب إلى الخارج اتهمنا بالكفر والإلحاد. .

أين شرد ذهنك؟

ذهب في مغامرة العقل، إن عاد احضنيه وضمدي وجع نزيف الأفكار، وإن رحل اذكري أنه كان يفكر كيف يكون للحب الانتصار. . وضعي صورتي على الجدار، واجعلي منه للباحثين والعاشقين مزار، وقولي إنه رحل ولم يعد، وعليكم أيضاً اتخاذ القرار؛ بين الموت والحياة خيط رفيع، وهو القرار. .

في ابتسامة مصطنعة حزينة سوف نلتقي ونلعب وأنتي في بيتي أمام الجميع، سوف أبذل كل ما عندي لأجل تلك الحظة. . تركت يدها لأنطلق وأعود حيث أتيت. .

المحتوم

تقدمت لكي أخرج من الباب، سمعت صوت صراخ من الداخل خلفي بصوت عالٍ -أين هو- كنت أصبحت في منتصف الشارع، وفي لمح البصر كنت في منزلنا في الدور العلوي. .

من الوضح أن القدر استعجل الخطوات كلها في خطوة واحدة. . على ما يبدو أن أحدهم لمحني عند تسللي إليها وأخبر أبواها وقد كشف أمر حبنا بما هو أصعب بكثير. .

ولا أدري ماذا حدث لـ زينب! هل قتلت؟ لست أدري ولا أملك أي قرار لفعل شيء، وأعتقد أنه صار الآن الأمر أكثر صعوبة، تجمع عدد ليس بالقليل من أقاربها تحت منزلنا. .

في صراخ كثير ممزوج بالعنف -افتحوا الباب-، والبعض يحاول وقف نزيف ما سوف يأتي. . نجح بعض الناس في تهدئة الموقف، ولكن ربما لبعض الوقت. .

حيث كان لها ابن عم عضو نشط في الجماعة الإسلامية. . . وعندما عاد إلى البيت عرف بما حدث. . جمع أعضاء الجماعة ثاني يوم بعد صلاة الجمعة. . بعد خطبة من الشحن في أهل البلدة. . تجمع الأعضاء مع أهل القرية. . جملة واحدة. .

وسط هتافات الله أكبر، الله أكبر؛ هجموا على كل البيوت المسيحيين. .

ومع صوت الرصاص في كل الأنحاء. . لا أدري ماذا حدث لهذا أو ذاك، ولكن رأيت من فوق منزلنا هجوم مسلح مع بيوت تشتعل والكنيسة التي على

زاوية الشارع تلتهما النيران. . . .
البعض استطاع الفرار إلى خارج البلدة، والبعض أرهقت دمائه. . وحدث هرج ومرج، وشغب، وسرقات، ونهب، واعتداء على النساء وقتلت أطفال. .
وتم تعرية سيدة من جيراننا، وتم سحلها في الشوارع. . .
واقتربوا كثيراً لبيتنا وأمي تبكي، ولكن أي كلام يطمن في مثل هذا العنف اللا إنساني، واحد صرخ بصوت عالي: إنه يسكن هنا. . بدأوا بالتكسير في الباب، ومع كل خبطة أمي ترتجف وتحضن في أختي الصغيرة الخائفة، واستمرت هكذا أصوات الهتافات والتكبير مع طلقات الرصاص، مع صوت هدم وتكسير في كل الأرجاء، وها هم يقتحمون المنزل. .
وفور دخولهم شاب ثلاثيني يحمل بندقية آلي يطلق الرصاص صوب أمي وأختي سقطوا جميعاً. . . . ووجه البندقية نحوي. . . أغمضت عيناي وقُلت في نفسي هيا فأنا مستعد افعلها، لم يعد لي حياة بعد. .
فبعد أمي وأبي وأختي وزينب ماذا يتبقى لي! وأنا مغمض عيناي في انتظار لحظات ضغطة زناد وأكون في أعداد الموت الذين أصبحت بالفعل في تعدادهم بعدما حدث. . ولكن صوت من الخلف قال لا تقتله ها نأخذه حياً حتى يكون عبرة لكل من تصور له نفسه أن يعتدي على بنات المسلمين.
خبطني بظهر البندقية أنزلني أرضاً. . وراحوا ينهبون ويدمرون كل أثاث المنزل حتى الحوائط لم تسلم، ربطوني بحبل وأخذوني سحلاً حتى ديوان العمدة. .
وأثناء ذلك رأيت عساكر وأمناء وضباط واقفين على جانبي الطريق؛ لا يفعل أحد شيئاً ليوقف هذا الدمار. . ولو كأنهم واقفين لتأمين هذا الموكب المجيد، وخبطني بظهر البندقية مرة أخرى على رأسي وهو يقول قف عدل،

وهنا شعرت بدوار وفقد الوعي، ولم أشعر ماذا حدث. .
انتهيت من آخر سطر في تلك الصفحة لأجد الصفحات التالية بيضاء، لطاما كان فضولي أن أعرف باقي ما قد حدث، فطويت الأجندة قرب شروق الشمس، وقد أرهق جسدي من السهر. . .
وألقيت بنفسي على السرير وترادوني الأفكار مما أنا اطلعت عليه عبر تلك السطور. .
لكن ربما لست بحاجة لمعرفة المزيد مما قد حدث، حيث إنني رأيته بعيناي في كل هذا الدمار وبين الأنقاض وفي الدموع والقتل والدماء. . .
وقررت أن أنشر هذه المذكرات في حلقات كل أسبوع في جريدة الأهرام كل يوم جمعة. . .
لعلها تفتح آفاقاً للمجتمع وتكون رؤية ونواة تغيير في ثقافاتنا وقبول بعضنا لبعض وفتح أبواب المجتمع ليكون أساس تعاملنا هو الاحترام الإنساني، فلا نمزق أنفسنا ونهدم وطننا. . .
يؤسفني كل هذا، وأتسائل لماذا كل هذا التعصب وكل هذا التمييز والعنصرية؟ لماذا نصنف بعضنا حسب اللون أو الجنس أو الدين؟
لماذا ندافع عن الله أو الدين؟ أليس هو قادر على حماية كلامه؟ لماذا هذه التفرقة وأن نقتل بعضنا باسم الله! ليس الحل في الدين والمظاهر، فالإيمان في القلب، فليس من شأني كيف تصلي أو بماذا تؤمن. . المهم أن تحترمني وتحترم قناعاتي، فهي لي وليس لك. . .
فالدين يفرق، إنما الحب والإنسانية هي التي تجمعنا. . نختلف في الاسم مرقص أو أحمد، مارتن أو محمد، ميريت أو زينب أو مجدي، ولكن في داخل كل منا قلب ينبض، بالحب، بالرحمة,,

فلا سبيل أمامنا غير قبول الآخر، قبول الاختلاف وأن نعلي القيمة الإنسانية، الرحمة، والاحترام،، لطالما كان التدين خارجي، فالحل في الداخل، أن نؤمن بذواتنا بطريقنا الخاص، أن نصنع فرقاً، فالدين لله والوطن للجميع،،، والإنسانية الطريق،،